

الإنسان وفرسان القدس يومنا
في
طرابلس

عمر محمد الباروني

الأسبان وفرسان القدس يومنا

في

طرابلس

— الفصل الاول —

الاسبان في طراباس

الاسبان بعد خروج العرب من الاندلس

كان لخروج العرب من الاندلس والقضاء على الدويلات العربية فيها اثر كبير في ازدياد الروح الوطنية بين الاسبان وشعورهم بالاندفاع وراء هذا الانتصار والمغالة في الشعور الديني والقومي، وهذا طبيعي، فالضعيف المغلوب على امره اذا ما صادفته فرصة وتغلب على غريمه القوي الذي خضع لنفوذه حقبة من الزمن فان انتقامه منه يكون شديدا وملاحقته لتسديد الضربة النهائية تكون اشد، وتشفيه من العدو يكون اعنف، هذه ولا شك ظاهرة طبيعية وغريزة متأصلة في بني الانسان ولذلك لم يكتف الاسبان بطرد العرب من جزيرتهم الجميلة بل احبوا ان يلاحقوا العرب حتى فيما وراء حدود بلادهم بعد ان اكسبها العرب طابعا شرقيا اسلاميا واسبقوا عليها دوائع الفنون العربية الاسلامية، وكان الاسبانيون متأثرين

فى الغالب بالروح الدينية التى كانت متقدمة فى اسبانيا على
اثر خروج العرب منها ، بفعل نشاط الكنيسة الكاثوليكية
ونفوذ الكرادلة ورجال الدين لدى الملك فرديناند ملك اراجون
وايزابيلا ملكة قشتالة .

اكتشاف امريكا والطريق الى الهند

ولقد زاد شعور الاسبان بالقوة والسيادة والنفوذ اكتشافهم
لامريكا سنة ١٤٩٢ م. ونشأة اولى المستعمرات لهم هناك
وتوصلهم الى معرفة الطريق البحرية الى الهند الشرقية بالمحاولات
التى قام بها فاسكو دى جاما (Vasco di Gama)
سنة ١٤٩٧ م. وفى نفس الوقت لم يكن لاسبانيا غريم قوى
ينازعها السيطرة ويقاسمها النفوذ ويحد من شدة تكالب
الاسبانيين على الفتح والاستعمار والاستكشاف بالاخص فى
الحوض الغربى من البحر الابيض المتوسط واوروبا الغربية
والجنوبية وذلك لان الاسبان ورثوا الحضارة العربية
التى كانت قائمة فى بلادهم ، وخبروا فنون الملاحة البحرية
وعرفوا الاصقاع والامصار واتقنوا التكتيك الحربى بعملهم

في السفن العربية التي كانت تسافر من اسبانيا للتجارة او للغزو ولتطوعهم كجنود مرتزقة في الجيوش العربية ولتمرينهم الطويل على صناعة الاسلحة في المصانع العربية

تغلب الروح الدينية على الاسبان

هذا وتسم اغلب الحملات الاسبانية بالاخص في الشمال الافريقي ، بالسمة الصليبية ، ولم يكن الغرض منها التوسع الاقليمي وامتداد النفوذ السياسي فحسب ، وانما كان الغرض منها موجهها الى التبشير لدين المسيح ومحاولة نشر ديانتها في البلدان التي يضع الاسبان عليها ايديهم ، ولم تكن لهم سياسة معينة في البلدان التي يفتحونها عدا سياسة نشر الدين المسيحي ومحاربة الاديان الاخرى بجميع الوسائل اعتقادا منهم ان في ذلك ما يوطد دعائم ملكهم ويبعدهم عن التعرض للانقلابات والثورات .

سياسة الاسبانيين

وقد تنفع مثل هذه السياسة في بلدان لا تعرف دينا سماويا من قبل وقد تفسد في بعض الجهات التي يدين اصحابها بدين

الوثنية ، ولكنها ليست سياسة رشيقة ولن يكتب لها حياة واستمرار في بلاد كالشمال الافريقي ، اعتنق اهلها دين محمد صلى الله عليه وسلم ، ويمكننا ان نلخص السياسة الاسبانية بعد خروج العرب من الاندلس بانها سياسة التمسيح بالحديد والنار والنفي والتشريد ، ولهذا السبب لم تستقر طويلا في ايديهم البلدان التي فتحوها وبالاخص في الشمال الافريقي ، ولهذا ايضا كانت الثورات والانقلابات عليهم في كل من طرابلس وجربة وتونس ووهران وبجاية وغيرها لا من عامة الشعب فقط بل حتى من اولئك الاشخاص الذين كانوا يتجسسون لهم على حساب اخوانهم وذويهم وكانوا يساعدونهم على احتلال بلادهم وقتل او تاسير ملوكهم واشرافهم .

الدوافع الاخرى لاحتلال الشمال الافريقي

ومن جهة ثانية فقد اندفع الاسبان الى احتلال قواعد في الشمال الافريقي للاقتراب من الحوض الشرقي من البحر الابيض المتوسط وامتلاك الموانئ والاسواق فيه لاحتكار

تجارة المعادن النفيسة والتوابل التي ترد اليها عن طريق القوافل البرية او عن طريق البحر الاحمر من جنوب آسيا ولمزاحة البندقيين والجنويز الذين استغلوا اسواق الشرق الادنى مدة طويلة واحتكروا اسواق أوروبا بضمائع الشرق وعلى الرغم من ان الاسبان توصلوا الى معرفة طريق الهند بحرا من افريقيا الغربية فمدينة الكاب فالمحيط الهندي فان البندقيين كانت ييدهم تجارة آسيا وافريقيا ولم يكن في مقدور الاسبان منافستهم .

حركة الاتراك في الشرق

وفي هذه الفترة كان الاتراك العثمانيون يوسعون ممتلكاتهم ويتقدمون في اوروبا بعد فتحهم للقسطنطينية سنة ١٤٥٣ م بخطوات ثابتة وكانوا يسيطرون على الخوض الشرقى من البحر الابيض المتوسط ، وهم ايضا كانوا يبشرون للدين الاسلامى في اوروبا ويحاولون فتح آفاق جديدة له واكتساب معتنقين جدد يدينون به حتى يوطدوا نفوذهم السياسى وسلطتهم الزمنية

ولم يعرف العرب بعد خروجهم من اسبانيا وتنازل
العباسيين عن الخلافة للعثمانيين كيف يوحّدون صفوفهم
ويكونون دولة قوية تستطيع ان تلعب دورا ازاء هذه
الاحداث ولم يوفقوا الى رسم سياسة تجمع كلمتهم وتلم
شتاتهم قبل ان تطغى عليهم الموجات الاجنبية من اسبانية
في الغرب وتركية العثمانية في الشرق بل كانوا في دهشة
من اصيب بضربة قاضية ففتح عينيه مأخوذا لينظر ما
ما فعل به ، لم تكن للعرب سياسة ثابتة يتمشون عليها
ليصلحوا ما فات ولينقذوا ما يمكن انقاذه ولم يكن في
وسعهم التحالف مع الاسبان لان الاسبانيين يدعون الى
دين المسيح علانية ويبشرون له بل ويرغمون الناس
على اعتناقه ولم يكن من اليسير عليهم التحالف مع العثمانيين
ضد الاسبان او غير الاسبان في بادىء الامر لانهم كانوا
يرون ان الاتراك هم الذين سلبوهم عروشهم ونزعوا من
اياديهم الخلافة وقد جر هذا التفكك بين العرب الى قيام
دويلات صغيرة فقيرة في الشمال الافريقي كله .

الانقسام بين العرب وتحكم المشايخ والقضاة

وكثيرا ما دفعوا السلاح ضد بعضهم فنجحوا انفسهم
واوسعوا المجال امام اعدائهم الطبيعيين الذين وجدوا ميدانا
واسعا وفرصة سانحة لاختضاعهم جميعا والتغلب عليهم
دون مشقة او عناء . وازداد في هذا الدور نفوذ الشيوخ
والقضاة على مدنهم وقراهم وقبائلهم فقطعوا صلاتهم
بعاصمة بلادهم وامتنعوا عن الاعتراف بملك يؤدون اليه
الخراج ويدينون له بالطاعة وساد عهد شبيه بالعهد الاقطاعي
في اوربا بل اشد منه حكمة واستبدادا واستفعلت النعرة
القبلية بدلا من الروح الوطنية الصادقة ، وكثيرا ما
تنشب الحروب الطاحنة بين القبيلتين المتجاورتين لاتفه
الاسباب ، وكثيرا ما يتقاتل الاخوان لابطس خلاف .

الحالة السياسية العامة في الشمال الافريقي

وهكذا قامت في الجزائر مملكة محمد الثابتى قضى عليها
الاسبان سنة ١٥٠٥ م وكانت قسطنطينة وتونس وجربة
في ايدى الحفصيين الذين لم يعد لهم حول ولا قوة ولم تكن

الاحوال فى طرابلس احسن بل كانت اشد واقسا فى الفترة التى سبقت الاحتلال الاسبانى .

الحفصيون فى طرابلس

كانت طرابلس قبل سنة ١٤٦٠ م تابعة للحفصيين يديرون شئونها بواسطة وال يعينه السلطان الحفصى وكل ما يهم هذا الوالى الحفصى هو جمع الخراج وتجنيد الرجال اذا ما اضطر الحفصيون الى الحرب ، وبقي الطرابلسيون خاضعين لنفوذ الحفصيين ولم يجدوا سبيلا للخروج عنهم واعلان التمرد عليهم حتى جاءت سنة ١٤٦٠ م ففى هذه السنة زفت ابنة سامى شريف احدى النيبيلات الشريات فى طرابلس الى ابن مصطفى بن احمد ، احد التجار الكبار الطرابلسيين وهو ايضا صاحب نفوذ ومال كثير ، واحتفلت طرابلس بزفاف العروسين احتفالا كبيرا لم يسجل التاريخ مثله فى طرابلس من قبل ، ولم يدم هذا الفرح والابتهاج طويلا فقد رد العريس زوجته الى بيت ابيها غداة دخوله بها بدعوى انها ليست بكر . وهذا التصرف من قبل الزوج جر البلاد كلها الى فتنه

اشتعلت نيرانها في كل الشوارع وبين كل البيوت ، فقد ثار افراد عائلة العروس وقاموا يدافعون عن شرفهم وسمعة عائلتهم وانقسمت البلاد الى طائفتين تحزبت كل طائفة لاحدى العائلتين ورفع سكان طرابلس السلاح ضد بعضهم وتكبد الطرفان خسائر جسيمة في الادواح ومن بين المقتولين كانت العروس المنكودة . وكان هذا هو مبدأ الاضطرابات والقتال وتطورت الى طرد الولى التونسي من طرابلس ورفع نفوذ الحفصيين عنها ، وباع الناس في الجامع الكبير سيدى منصور من اعيان طرابلس لسعيه في اخماد الفتنة بين الصفيين المتقاتلين وتهدة الخواطر ورفع الضغائن بين مواطنيه ، إعترافا له بجميل مسعاه ، وكانت مبايعة سيدى منصور على اثر خطبة القاها خطيب الجامع الكبير (١) الشيخ عبد الحميد دعا فيها الناس الى مبايعة سيدى منصور واقسم الخطيب اليمين على طاعته وامتثال اوامره وكان هذا كاعتراف رسمى بتولية سيدى المنصور ، وعندما بلغ هذا الخبر الى قبائل غريان وبنى وليد وترهونة ومسلاتة ومصراتة وتاجوراء وزوارة ارسلت الى سيدى المنصور بالبيعة والتهانى (١) يعتقد انه كان يقع حيث جامع احمد باشا القره مانلى الان

وعضب سيدي ابو عمر ملك تونس الحفصي على طرابلس
لانتقاضها عليه وطردها لعامله واخذ يستعد لتمكين نفوذه
ثانية على طرابلس ، واستعد سيدي المنصور ايضا فجهز جيشا
مؤلفا من خمسة آلاف من المشاة وثلاثة آلاف من الفرسان
للدفاع عن استقلال بلاده وابعادها عن دائرة نفوذ
الحفصيين . وعندما تقدم الجيش التونسي لاحتلال زوارة
كان الجيش الطرابلسي في الميدان مستعدا للقتال وجرت
بين الجيشين معركة دامية خسر فيها التونسيون ثلاثة آلاف
رجل فارتدوا الى قواعدهم ، وضعب على الملك الحفصي
ان يرضى بهذه الهزيمة من الطرابلسيين ، فحاول في السنة التالية
احتلال طرابلس ولكن لم يكن نصيبه في هذه المرة احسن
من نصيبه في المرة الاولى فهزم جيشه من جديد وتشتت
ورجعت البقية الباقية منه .

الا ان العداء بين الشقيقتين لم يدم طويلا اذاستؤنفت العلاقات
التجارية ورجعت المياه الى مجاريها وزال الخلاف وهدأت
الخواطر ولم يفكر الحفصيون من بعد في الاستيلاء على
طرابلس بل رضوا بالامر الواقع .

وقد روى تاريخ هذه الفترة نيكولا دي نيكولى (Nicolas

(de Nicolay) سكرتير دارامون (D'Aramount) سفير فرنسا لدى البلاط العثماني في كتابه المسمى (Navigationi et Viaggi). وذكر ني-كولا في مذكراته ان نهاية سيدى منصور كانت مؤلمة ، اذ انه بعد ما استقرت به الحال ووطد قدمه في الحكم عاد فغير سياسته الاولى الطيبة وما لبث ان صار جبارا ظلوما وهذا ما دعا احد افراد عائلته الى قتله . وباع سكان طرابلس بعد مقتل سيدى منصور رجلا غنيا يدعى يوسف حكم تسع سنوات مات بعدها - بالطاعون سنة ١٤٨٠ م .

حكومة الشيخ عبد الله

(وخلف يوسف المذكور في الحكم على طرابلس مامى الذى توفى سنة ١٤٩٢ م ثم ولى سيدى عبدالله بن شرف باجماع الشعب ، وكان يلقب سيدى عبد الله بالمرابط (الولى الصالح) لصلاحه وتقواه وتعبداه واكثاره من الصلاة والاعتكاف . وكان الشيخ عبد الله رجلا عادلا مستقيما في اموره مع الناس جميعا ، وكانت علاقته مع جاره ملك تونس طيبة كما كانت سياسته مع الملوك

المسيحيين الذين لهم علاقات تجارية مع بلاده فيها كثير من التساهل واللين .

ولم يهتم الشيخ عبد الله بتحسين طرابلس وتقوية أبراجها واسوارها وقصرها عند توليه الحكم حتى لا تتجه اليه انظار الدول الاجنبية وحتى لا يطمحوا في الاستيلاء على طرابلس ، اضاف الى ذلك ان الشيخ عبد الله لم يكن له الاستعداد اللازم للقيام بمثل هذا المجهود الجبار من حشد الرجال والعمال وجمع المال الكافي لاعمال البناء والترميم والتحصين ورفع القلاع التي يمكن ان تصمد امام ضربات مدفعية اسطول قوى . وان استطاع سيدى عبد الله ان يحشد الرجال والعمال فانه لا يستطيع ان يجد في خزائن الدولة مالا قليلا او كثيرا ، لان نظام الحماية لم يكن عاما على جميع البلاد الطرابلسية والمشاخ في الجبل والجفارة وبني وليد ومصراتة مستقلون بجهاتهم تمام الاستقلال لا يؤدون للدولة المركزية ما وجب عليهم من خراج .

والواقع ان ايام سيدى الشيخ عبد الله لم تكن اياما لامعة في تاريخ طرابلس على الرغم من صلاحه وتقواه وحبه للعدل ، ويظهر ان حب الشعب له ودعوته باسمه

ورغبته فيه يرجع الى عدم مطالبته الشعب بالخراج الكبير
وتساهله مع الناس في امور الجباية وعدم فرض الضرائب
العادية أو الضرائب غير العادية لانعاش الجيش الطرابلسي
وتقوية الاسوار والحصون للدفاع عن المدينة اذا ما
تعرضت لغزو مسلح من الخارج ولاخضاع سكان الدواخل
التمردين لدفع الخراج أو لبناء اسطول تجارى او حربى
يرجع لطرابلس مكانتها ويساعد على ترويج البضائع
المحلية وتجارة الوساطة (الترانسيت) في اقطار اورب
والشرق العربى .

ولهذا فقدت طرابلس مكانتها المرموقة كركز استراتيجى
يشرف على الحوضين الشرقى والغربى من البحر الابيض المتوسط
كما فقدت اسواقها شهرتها القديمة واستحلّت الازمة الاقتصادية
الى جانب ضياع النفوذ السياسى ، واضطر التجار الى
استخدام السفن البندقية والصقلية والجنوية والاسبانية
لتصدير البضائع الاتية من برنو وكنو وانواع المنتجات المحلية.
ولنعرف حالة طرابلس من الناحية العمرانية قبل الغزو
الاسبانى يجب ان نستعرض ما ذكره المؤرخون والرحالون
الذين جاءوا الى طرابلس .

البكرى

ويقول ابو عبيد عبد الله البكرى الذى قام برحلة فى القرن الحادى عشر الميلادى فى معرض كلامه على طرابلس: وعلى مدينة طرابلس سور صخر جليل البنيان وهى على شاطئ البحر ومبنى جامعها احسن مبنى ولها اسواق حافلة جامعة وحمامات كثيرة فاضلة ومرساها مامون من اكثر الرياح ويقول البكرى فى موضع آخر: « ومدينة طرابلس كثيرة الثمار والخيرات ولها بساتين جليلة فى شرقيها ويتصل بالمدينة سبخة كبيرة يرفع منها الملح الكثير وداخل مدينتها بئر يعرف ببئر ابى الكنود ويعيرون به ، ويحمق من شرب منه فيقال للرجل اذا اتى بما لا يلام : لا يعتب عليك لانك شربت من بئر ابى الكنود » انتهى كلام البكرى «
ويلاحظ ان زيارة البكرى لطرابلس كانت منذ اربعة قرون تقريبا قبل الغزو الاسبانى .

الرحالة التيجانى

وجاء الى طرابلس فى القرن الرابع عشر ميلادى الرحالة

والظاهر ان الطارمة (١) كانت في نفس القصر على الرغم من انه ليست لدينا حجج كافية تثبت صحة ما ذهبنا اليه . على اننا لا نعرف متى بنى قصر طرابلس ولا في اى عهد رفعت قواعده ، فربما يرجع بناؤه الى العهد الرومانى ، ولم يعثر في القصر اثناء اعمال الحفريات التى اجريت به على شىء يمكن ان يؤخذ كوثيقة على وجود هذا القصر في العهد الرومانى ومن الثابت وجود القصر في العهد الاسلامى وان كنا لا نعرف متى بنى ومن بناه وقد تحمل فيه عبد الله بن ابراهيم بن الاغلب حصارا شديدا من طرف العساكر الذين لم يتركوا حصاره الا بشرط ان يتعد عن المدينة . ويتكلم المؤرخون عن قصر طرابلس بمناسبة حادثة اخرى ذات اهمية خاصة بطرابلس وهى طرد الحامية النمرانية؛ التى استقرت في البلاد سنة ١١٤٦ م. بعد الغزو الذى قام

(١) وجاء في الامثال الطرابلسية القديمة : « فلان رفعوه الى الطارمة » ولا يزال هذا المثل مستعملا في طرابلس بمعنى ان فلانا رفع اسام القضاء .

به جورج الانطاكي اميرال راجار النرماندى ملك صقلية . وحكم
النرمانديون طرابلس بواسطة وال عربى عينوه عليها من
قبلهم ، ولم يكن هذا الوالى راضيا على النرماندين بل كان
شديد الرغبة فى التخلص من الحكم الاجنبى فحاك للنرماندين
مؤامرة بيتها سرا مع رجاله ، بان سد الطرق بالحواجز ليلا وربط
بين الشوارع الحبال الغليظة ثم اعلن الشعب غداة ذلك ان
لا طاعة عليهم لغير مسلم . وخرج الفرسان النرمانديون
من القصر ووقعوا فى الحبال التى نصبها لهم الطرابلسيون .
وقد وقع كثير من المؤرخين فى خطأ كبير باسنادهم بناء
القصر الى الاسبان مع ان الثابت ان رفع قواعده وتشييده
كان من طرف العرب ويرجع السبب فى ذلك الى ان المؤرخين
لم يتركوا لنا شيئا صحيحا يبين لنا سنة بناء القصر واسم
بانيه ، ويظهر ان القصر بنى فى عهد الدولة الاغلبية ،
ولا نجد فى الكتب التاريخية القديمة اى تفصيل عن شكل
القصر وهندسته وارتفاعه ولا عن اسواره وابراجهِ وغرفه
كما لا نجد اى اشارة عن حياة ساكنيه ومجلس السمر والخمر
او حلقات التسبيح والذكر التى كانت تعقد فيه ، وكل ما لدينا
من تفاصيل عن القصر ترجع الى العهد الاسبانى ، ومن ههنا

ظن الكثيرون ان قصر طرابلس من بناء الاسبان . والواقع ان كل ما يسند الى الاسبان في القصر انهم زادوا في بنائه ورفعوا سميكة وحصنوه تحصينا قويا كما رفعوا اسوار المدينة وحاولوا تقويتها متأثرين بحمى الحرب ، خوفا من غزو مسلح عليهم من البر او البحر ، لاحبا في تزيين المدينة وتعميرها او ميلا منهم الى حياة القصور والترف ، لان الاسبان الذين جاءوا الى طرابلس للاحتلال جنود وفرسان اذا استثنينا بعض الاشراف والنبلاء منهم .

الرحالة الهولاندى مرمول (Marmol)

اما الرحالة الهولاندى مرمول (Marmol) الذى زار طرابلس في اوائل القرن السادس عشر فقد ذكر ان طرابلس اثناء زيارته لها كانت تتمتع بشيء من الاستقرار والرخاء وتتوفر فيها اسباب الحياة المدنية ، وقال : ان التجارة في طرابلس نامية ونشطة جدا والمدينة مزينة بالمساجد والجوامع الكبيرة وبها معاهد ومدارس ومستشفيات، والمخازن والدكاكين خاصة بانواع البضائع والسلع .

وقد يكون في هذا شيء من الصحة لان ايام الشيخ عبد الله

اشتهرت بالتساهل مع التجار وعدم اقبال كاهل الناس بالضرائب كما اشتهرت بوجود شيء من الحرية الشخصية في المعاملات التجارية مع الداخل والخارج واحترام التجار الاوربيين ومراعاة العهود والمواثيق التي تبرم مع دولهم وهذا كله ، طبعاً يبعث على الراحة ويزيل عدم الثقة في الشعب والتجار الوطنيين والاجانب في عرض بضائعهم ويفتح امامهم مجالاً واسعاً للكسب والتجارة وانتهاز الفرص واستغلال الاسواق الداخلية والخارجية .

ويقول مرمول ايضاً ان شوارع طرابلس اكثر انتظاماً من شوارع تونس، وذكر ايضاً انه ليست في طرابلس حنفيات بل فيها صهاريج تتجمع فيها مياه الامطار ويستعمل سكان المدينة مياهها في حاجياتهم اليومية .

ويظهر من كلام مرمول ان صناعة النسيج في طرابلس اثناء زيارته لها كانت نامية جداً فقد ذكر ان الطرابلسيين يعرفون ١٥٠ طريقة في صناعة المنسوجات الحريرية ولم تشتهر طرابلس بالمنسوجات الحريرية في الاسواق العالمية كما اشتهرت الموصل ودمشق ونحن نعتقد ان المنسوجات الحريرية التي ذكرها مرمول ، كانت تصنع للاستهلاك المحلي ،

ولا يبعد ان تكون الاردية النسائية المستعملة اليوم في كل القطر الطرابلسي تتصل بشيء قريب او بعيد بتلك المنسوجات التي عرفتها طرابلس قبل اكثر من اربع مئة سنة .
على اننا لا نؤيد مرمول فيما ذهب اليه من براعة الطرابلسيين في صناعة الحرير . فقد يكون في الرواية شيء من الخلط والخطب لاننا نعتقد ان صناعة الحرير تقوم اما في بلدان اشتهرت بتربية دودة القز او في بلاد بها ملك وثروة كبيرة وسلطان مكين ، وكلاهما لم يكن منه شيء في طرابلس قبل زمن مرمول او بعده ، وطبيعي ان الحرير من لباس الطبقات الارستقراطية الغنية الواسعة الشراء .

ونستخلص من كل ما تقدم على النواحي العمرانية ان طرابلس كانت قبيل الغزو الاسباني جميلة ورائعة هذا وقد اتفق مع المؤرخين الذين اوردنا ذكرهم فيما سلف قائد الحملة الاسبانية دون بدرو نافارو في تقريره الذي بعث به الى ناؤبب ملك صقلية . فقد جاء في هذا التقرير :

انها ((يعنى طرابلس)) اكبر كثيرا مما كنت اتصور ، وان الذين وصفوها لنا سابقا وتغنوا لنا بجمالها وعظمتها لم يقولوا

وازاء هذا الاتفاق بين المؤرخين فى الاشادة بما تتمتع به طرابلس من عظمة فى العمران ودواج كبير فى التجارة وحصانة الاسوار والاسدكومات والقصر ، لا نستطيع ان نجد مبررا لسقوط مدينة طرابلس فى ايدى الاسبان بسهولة خصوصا وان الاسبان انفسهم الذين اشتركوا فى الحملة على طرابلس شهدوا بان سكان المدينة ابلوا بلاء حسنا واستماتوا فى سبيل الدفاع عن بيوتهم وعائلاتهم كما شهد التاريخ بان السكان جميعا كانوا راضين على سياسة شيخهم سيدى عبد الله، فلم يكن تمة ما يدعوا الى اتهام السكان او اتهام الحاكم بعدم التعاون فى الدفاع حتى نفس سهولة سقوط قصر طرابلس وابراجها بسرعة خاطفة وبعد مقاومة ساعات فقط فى ايدى الاعداء على ان الجيش الاسبانى لم يكن من كثرة العدد والمعدات حتى تخور امامه العزائم وتضمحل القوى وتفشل المقاومة . وكل ما يمكننا ان نفسر به سرعة سقوط المدينة فى ايدى الاسبان هو ان القلاع والاسوار كانت موجودة فعلا ولكنها غير كاملة التحصين وان المدينة كانت تعوزها المعدات الحربية وان الذين قاوموا الاسبان من سكان المدينة كانت تنقصهم الخبرة

الحرية والتكتيك اللازم لصدد مثل هذه الغارات على العكس من الاسبان الذين خبروا الاساليب الحربية لكثرة هجماتهم على البلاد الاسلامية من الشمال الافريقى .

ومن ناحية ثانية فان ما كان الطرابلسيون يسمعون عن الاسبان وعن قوتهم والاساليب الوحشية التى يستعملونها فى الحرب وتغلبهم على العرب فى الاندلس كل هذا كان له اثر نفسى كبير فى سكان مدينة طرابلس فاستسلموا وهربوا من وجوههم الى دواخل القطر .

هذه مقدمة عن الاحتلال الاسبانى لطرابلس استعرضنا فيها الظروف التى مرت بها البلاد من النواحي الاجتماعية والعمرانية والتجارية وحاولنا ان ننير جانباً كان غامضاً فى تاريخها ولعل هذه المقدمات تكون صالحة لتكوين الاطار الكامل للاحتلال الاسبانى .

الفصل الثاني

بدء الغزو الاسباني في الشمال الافريقي

تولى عرش مراكش ابو عبد الله محمد اكبر اولاد محمد الثابتى بعد وفاة ابيه فوجد الدولة على شفا جرف هاو ، فان الاسبان قد نشطوا بانتصاراتهم على المسلمين وقد اكتشفوا امريكا وارادوا ان يتمادوا في فتح المغرب .

وعند ذلك اعد ابو عبد الله جيشا لمقاومتهم فاقى متاخرا ولما راي قوة الاسبان قفل راجعا ، وراى السلطان انه اصبح في حيص بيص فاختر ان يستميل ملك اسبانيا فرديناند عدو الاسلام اللدود ، فقصده بنفسه وتوجه الى مدينة برغشت من اعمال اسبانيا وتقدم اليه بالهدايا منها خريدة ملكية نادرة الجمال وخيول عربية ودجاجة من الذهب لها ست وثلاثون نقفا من الابريز الخالص وغيرها من آيات الصناعة الجزائرية الراقية ، وتعاهد معه على ان يدخل تحت حمايته ويعطيه اموالا سنوية ويمد الحاميات الاسبانية بالرجال ، فزاد ذلك الطين بلة فسئمت الرعية هذا الملك الذي ساعد النصارى

عليها واثقل كاهلها بالضرائب ، والحق يقال ان ابا عبد الله قد ارتكب هفوات سياسية كانت وبالا على دولته ، فانه امهل الاسبان حتى استولوا على وهران ثم اثقل كاهل رعيته بالضرائب وعاهد الاسبان على غير فائدة له انتهى كلام الكعك .
ولقد توجهت الحملة الاسبانية الاولى على الشمال الافريقي في ٥ سبتمبر ١٥٠٥ وكانت قاصدة احتلال المرسى الكبير وفي ١٧ مارس ١٥٠٩ احتل الكونت بدرو نافارو (Pedro Navarro) مدينة وهران وفي ٥ يناير من سنة ١٥١٠ احتل الكونت نفسه مدينة بجاية .

ويدعى الاسبان ليرروا هجماتهم هذه ان الاساطيل الاسلامية كانت تغزو بلاد النصارى وان المسلمين المغاربة كان لا يهدأ لهم بال في شن الغارة على الموانئ الاسبانية وبلاد جنوب اوروبا ، وكانوا يسمون مثل هذه الحملات البحرية اعمال قرصنة ولصوصية بحرية ولذلك عزموا على احتلال شمال افريقيا لمطاردة القرصان ولصوص البحر حتى لا يرجعوا الى اعمالهم من بعد ولاخذ الثار من الموانئ الاسلامية .

والواقع ان الاسبان كانوا البادئين يوم ان طردوا

المسلمين من اسبانيا وتعقبوا آثارهم واذاقوهم الوان العذاب. ولم يكن عمل السفن الاسلامية قرصنة بالمعنى الذى يريد ادخاله فى روعنا الكتاب الاورويون بل كان نوعا من الجهاد وقد فرضه الاسلام على اهله واعتبر شهيدا من مات فى فتح البلاد المسيحية وغزوها واحل غنائمها واسلابها ، ولو كان الغرض من هذه الاغارات القرصنة كما يقول الاورويون لشملت السفن التجارية الاسلامية ايضا ولكن الواقع انها اقتصرت على السفن المسيحية الامر الذى يدل على ان الجهاد كان الغرض الرئيسى لها .

ولذلك فان ما كان يدعيه المؤرخون الاورويون باطل لان الاسبان كانوا يريدون افتتاح جميع الشمال الافريقى وبالاخص قاعدة جربة التى لعبت فى هذا العهد دورا هاما فى الحروب البحرية فى البحر الابيض المتوسط . ولكن القائد الاسبانى كان يعلم ان دوام الاستيلاء على جربة لا يتحقق الا بعد ان يستولى على طرابلس حتى يضمن بقاء الاسبان فى الجزيرة والشمال الافريقى مسيطرين على تجارتها وملاحتها وحتى يجعل من طرابلس قاعدة لتموين جيشه ومركزا للاحتماء اليها اذا ما اضطر الى ذلك .

ويقول الرحالة الهولاندى مرمول ان الجنود الاسبان الذين نزلوا بجاية كان عددهم ١٥ الفا نزل جميعهم فى ميدان ضيق ولذلك انتشرت بينهم الامراض السارية التى فتكت بالجنود فتكا ذريعا وكان من اجل ذلك ان اضطر القائد الاسبانى بدرو نافارو الى مغادرتها قاصدا طرابلس بعد ان ترك فى بجاية سكرتيره العام مع عدد من الجنود .

ولكن فى الواقع ان سفر دون بدرو نافارو الى طرابلس كان مدبرا من قبل وقد استعد له ايما استعداد وحضر جنوده وسفنه وتموين الجيش . والرسالة التالية تبين كل ذلك وهى رسالة وجدت فى مخزن اوراق سيمانكا (Simanca) من فرديناند الكاثوليكي ملك اراجون باسبانيا مؤرخة فى مايو ١٥١٠ ومرسلة الى الكونت نافارو وهذا نص الرسالة :

الى الكونت بدرو نافارو قائدنا العام ومستشارنا
استلمت رسائلكم الثلاث المؤرخة فى ٣ مايو والتى بعم الى بها عن طريق بلنسية كما استلمت الرسالة الاخرى المؤرخة فى ٥ المذكور والتى سلمها الى كبير ياوران قصرنا ميقويل كابريرا (Miguel Cabrera) وقد امرت ان يكتب الى الونزو شانشيز (Alonzo Sanchez) حتى يطعن باسرع ما يمكن

الف كيس من القمح بمملكة بلنسية كانت ارسلت هناك
وعليكم ان تبعثوا بها الى بجاية ، وستسلمون ايضا كمية
من البقسماط المصنوع من هذا الدقيق كافية لتموين ثمانية آلاف
رجل مدة خمسة عشر يوما . وبما ان المواد الغذائية ليست
متوفرة في هذا الوقت ببلنسية فقد كتبت الى خازن اموال
ملقا (Malága) وفرقاس (Vargas) اطلب منه ان يرسل اليكم
حين وصول رسالتى اليه وبدون تردد كل المؤونة التى يمكنه
التصرف فيها واضعا في ذلك كل عنايته ، كى تتزودوا بها
وقت الحاجة ويكون في استطاعتكم السفر (الى طرابلس)
كما انى امرت الخازن المذكور ان يرسل اليكم عشرة آلاف
دوكات ، وعند وصولكم الى صقلية ان شاء الله ستجدون
كل ما اتم في حاجة اليه وتتمون تزويدكم اذ ان نائب ملك
صقلية كتب الى يخبرنى بان كل شىء جاهز لهذا الغرض .

واعتقد حسب ما اعلمتمونى في عدة مناسبات ، انه اذا
اردنا الاستقرار في افريقيا ينبغي ان نحتل مدينة وهران
وبجاية وطرابلس ، واذا آلت الاخيرة الى ايدينا يجب
ان نسكنها باكملها بالمسيحيين لان المغاربة (المور) هم اصحاب
كل ما تبقى من البلاد واذا سمحنا لهم بالاقامة في مدن السواحل

فلن نتمكن من الاحتفاظ بممتلكاتنا زمنا طويلا
ويجب ان تكون الاماكن الثلاثة ، اذن
هو احسن ، محافظة بحماية قوية من المسيحيين
لاى عربى الدخول اليها .

والمهم اتباعه فى عقد المعاهدة مع ملك بجاية
اخرى ترون عقدها ، هو مسألة التموين ، اذ يد
على متتوجات البلدان المحتلة فى حاجياتنا ؛
قد يصبح من المستحيل استجلاب حاجياتنا من
لمدة طويلة ، فننقصد بذلك ثمار ما اكتسبناه بمج
لذلك يهمننا ان ننظم المسائل بكيفية تمكننا
بالاماكن التى وضعنا عليها ايدينا دون ان نك
على تزويدها من الخارج كما فعلنا حتى اليوم ،
لا ينبغي الا ان ندبر النفقات الضرورية والم
والسفن اذا ما دعت الظروف الى ذلك .

فرد

نقلت هذه الرسالة عن نسخة فرنسية ذكره
(Charles Feroud) فى صحيفة ٢٢ ، ٢٣
وعلى اثر استلام دون بدرو نافارو هذه

من بجاية ومعه ٨٠٠٠ رجل وكان ذلك في ٧ يونيو ١٥١٠ م
واتجه الاسطول الاسباني الى فاينيانا (Favignana) في
صقلية لينتظر السفن القادمة من نابولي ومن موانئ صقلية
لمهاجرة مدينة طرابلس حسب التعليمات التي تلقاها من الملك
فرديناند الكاثوليكي .

ومن الجدير بالملاحظة ان هذه الحملة نظمت تحت اشراف
نائب الملك في صقلية وباعانة الجيوش الصقلية والاطالية .

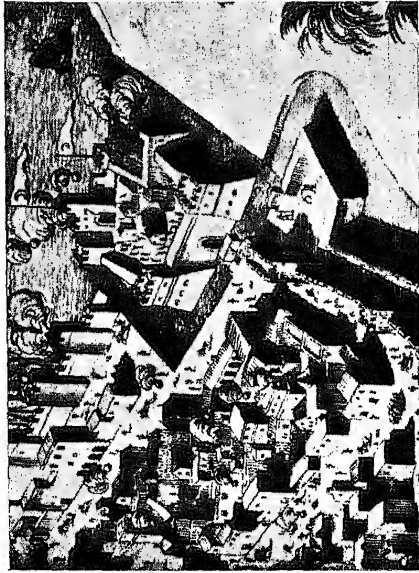
وفي ١٥ لوليو ١٥١٠ م اقلع الاسطول الاسباني من فاينيانا
ورسا عند الجزائر المالطية حيث تزود بالماء من جزيرة قوزو
(Gozo) ، واستجد بالمالطيين وانضم الى جيش دون
بدر دجل من مالطة يدعى جوليانو ابيلا (Giuliano Abela)
سبق له ان عرف مدينة طرابلس وسواحل افريقيا الشمالية
وكان يساعد القائد الاعلى ضابط بندق برتبة كولونيل اسمه
جيرولامو فيانيللو (Girolamo Vianello) وهو ايضا يعرف
مدينة طرابلس معرفة جيدة فقد جاءها من قبل في بعض
الشؤون التجارية .

وهذا يثبت لنا استعداد الاسبان الكبير على فتح هذه
القاعدة بل ويثبت لنا ايضا تألب المسيحيين في الاشتراك

مع الاسبان للانتقام من سكان طرابلس بعد ان شعروا بتفكك
السياسية وعجزهم عن المقاومة والحرب كما اثبتت صحة ما
ذهبنا اليه في اول هذا البحث من ان هذه الحملات كان لها
الطابع الصليبي المحض وتسيطر عليها النزعة الدينية ، ولعل
اكبر دافع للاسبان على غزو طرابلس كان لمحاولة الاستيلاء
على مصر ولتهديد الامبراطورية العثمانية الناشئة وتسديد
الضربة القاضية لمعاقل الاسلام ، ولم تكن مصر حينئذ في
حالة من القوة والاستعداد تستطيع بهما الدفاع عن نفسها
فضلا عن ايقاف الاسبان عند حدهم وعرقلة توسعهم على
حساب المسلمين ومد يد المساعدة لسكان شمال افريقيا
المهددين في كل ساعة بالغزو الاسباني .

على ان البلاد الاسلامية كلها لم تكن في ذلك الوقت
قادرة على تشكيل اسطول حربي وجيش منظم ولو حدث
المستحيل واتحدت هذه البلدان المتباعدة المتنافرة المتباغضة لما
استطاعت تجهيز اسطول قادر على ان يقف امام الاسطول الاسباني القوي
واعداد جيش به من العدد والاستعداد ما كان لدى الاسبان . فقد
جهز الاسبان للحملة على طرابلس فقط ١٢٠ قطعة بحرية بين
صغيرة وكبيرة وانضم الى السفن الاسبانية خمسة سفن اخرى

قصر طرابلس في سنة ١٦٨٥ كما يظهر أثناء حصار الاسطول الفرنسي



من مالطة ، وشحنت هذه السفن بخمسة عشر ألف جندي اسباني وثلاثة آلاف جندي بين ايطالى وصقلى وبالمطى .

قسم دون بدرو نافارو جيشه الى قسمين : القسم الاول ويتالف من اربعة طواير فى كل طابور الف جندي واسندت قيادة كل طابور الى واحد من القواد الاربعة .

(١) - دياجو باشيكو (Diego Pacheco) (٢) - يونس دى ارياجا (Joanes de Arriaga) (٣) - جوان سلجادو (Juan Salgado) (٤) - افىلا (Avila)

وكلف هذا القسم بمهاجمة العرب الموجودين خارج المدينة لمنع وصول اية مساعدة قد تصل من الخارج الى سكان المدينة لغرض اذكاء المقاومة . اما باقى الجيش فكلف بمهاجمة البلاد والانقضاض على الاسوار والقلاع .

واقترب الاسطول الاسباني من طرابلس وبات الكونت بدرو نافارو ينظم الجيوش ويضع الخطط ويصرف الاوامر وهو يحلم بالثروة الكبيرة التى سيحصل عليها لا محالة من طرابلس خصوصا وان شهرة طرابلس وثروتها ووفرة خيراتها كانت منتشرة فى اوروبا فى صورة اشبه ما تكون بالخرافة .

ولم يكن بدرو نافارو ليبل المولد شريف الاصل وانما

انحدر من عائلة فقيرة ، فقد ولد في بسكى حول سنة ١٤٦٠ م واشتغل في اول حياته عاملا بالناجم وحارب بين سنة ١٤٩٩ و ١٥١٠ في جيش دون كونسالفو القرطبي (Don Consalvo di Cordova) في جزائريونان وايطاليا الجنوبية واشتهر دون بدرو في مختلف المعارك بالجرأة والاقدام والخبرة الحربية وفي سنة ١٥٠٤ ولى على اوليفيتو بمنطقة الابروتزى بايطاليا. رسا الاسطول الاسباني امام ميناء طرابلس ليلة ٢٥ لوليو ١٥١٠ م وجرت عملية انزال الجيوش في القوارب الصغيرة التي جهزت واعدت من الليلة السابقة ، وبدأ هجوم الاسبان عند الساعة التاسعة صباحا وكان اليوم حارا شديد الحرارة واصطف ستة آلاف جندي استعدادا للقتال في جهة الساحل الواقع في الجنوب الشرقى من المدينة والظاهر كان عند سيدى الشعاب لارتفاع هذه الجهة ولاشرفها على المدينة. ولتوفر المياه الصالحة للشرب فيها . واقتربت السفن من القصر والاسوار المطلة على حوض الميناء واخذت ترميها بحمها ونار مدافعها بينما كانت مدفعية الميدان تمهد السبيل الى الفلانج الاسباني وترمى الاسوار الجنوبية الشرقية بالقنابل ، وكان قسم آخر من الجيش يحمى ظهور المغيرين من اى هجوم يقع من طرف

عرب الدواخل عليهم .

اما عرب مدينة طرابلس فلم تكن لديهم الوسائل الكافية للرد على الضرب بالمثل واذكاء المقاومة وعرقلة تقدم الاسبان نحو القصر والاسوار ، اذ أن عدد سكان المدينة كان ضئيلا جدا فلم يبق فيها سوى بضعة آلاف بين رجال ونساء واطفال اما الباقي ففروا الى تاجوراء وجبال غريان ومسلاتة لانهم سمعوا بمقدم الاسبان قبل ٣٥ يوما واخرجوا معهم اموالهم على الجمال التي يقدر عددها بخمسة آلاف جمل ، ولم يبق في المدينة الا الجنود وبعض المدنيين وشيخ المدينة عبد الله بن شرف وازواجه وابناؤه واصهاره وبعض العائلات اليهودية التي كانت تقطن في حارة جوديخا (Jodecha) اليهودية والقريبة مما نسميه اليوم الباب الجديد ، وانحاز اغلب المدنيين في الجامع الكبير وفي القصر حيث الشيخ عبد الله وعائلته . اما فوق الاسوار وفي القلاع فكانت الحامية الطرابلسية القليلة . وحوادث الاستيلاء على طرابلس وتفصيلها رواها الكونت بذرو نافارو في رسالة بعث بها الى نائب الملك في صقلية في يوم ٢٩ لوليو من السنة نفسها . وقد يكون من الافضل تتبع ما جاء في رسالة الجنرال الاسباني . قال :

وصل الاسطول الاسباني امام سواحل طرابلس صباح
الخميس من يوم ٢٥ لوليوسنة ١٥١٠ م الذي يوافق يوم
القديس جاك الرسول ، وهو اليوم العزيز عند الاسبان ،
ونزل في ظرف ساعات قليلة ستة آلاف جندي هاجم نصفهم
البلاد اما النصف الاخر فكان يحرس ميدان القتال خوفا
من غارات عرب الضواحي ، واستولى المهاجمون بمساعدة
مدفعية الاسطول على جزء من الاسوار وعلى قلعتين ، ثم استولوا
على البرج القائم فوق باب العرب (١)

وفتح الاسبان هذا الباب ودخلوا المدينة وجرت
بيننا وبين العرب داخلها معارك ابلى فيها الطرابلسيون
بلاء حسنا . وجاء في هذه الرسالة ايضا : وكان عدد الموق
من جانب الشعب كبيرا جدا حتى انه لم يخل موضع قدم
من قتيل ويقدر عدد الموق من العرب بخمسة آلاف اما الاسرى
فعددهم يزيد على ستة آلاف ، وعدد الموق من الاسبان كما
يقول القائد الاعلى دون بدرو كان ضئيلا جدا .
واذا صح ما ذكره دون بدرو في رسالته هذه وصدق في

(١) Puerta de Los Alarbes باب العرب

- يحتمل ان يكون باب المنشية او سوق المشير الان

لأرقام الواردة عن عدد الموقى والاسرى من العرب كان في ذلك ما يجعلنا نعتقد ان عدد سكان مدينة طرابلس كبير جدا باضافة عدد العائلات والافراد الذين فروا قبل الغزو الى القرى القريبة من طرابلس والى التلال الجنوبية والشرقية ، وان دلت هذه الرسالة على شيء فان ابرز ما تدل عليه هو ان سكان طرابلس لم يبلوا البلاء الحسن فقط وانما ضحوا بانفسهم جميعا وقدموا انفسهم للموت او الاسر جميعا في سبيل الذود عن حياض الوطن المقدس .

ويسترعى نظر المؤرخ ما جاء في آخر رسالة القائد الاسباني دون بدرو نافارو ، فقد قال : هذه البلاد (يعنى طرابلس) هي اعظم كثيرا مما كنت اتصور وان الذين وصفوها لنا سابقا وتغنوا لنا بجمالها وعظمتها لم يقولوا الا الحقيقة بل لم يقولوا الا نصف الحقيقة ، ولم ار مثلها في حصولها ونظائرها من بين جميع المدن التي رايتها .

وهناك وصف آخر لمدينة طرابلس كتبه باتيستينو دى طونسيس (Batistino de Tonsis) وهو احد افراد هذه الحملة. قال : « مدينة طرابلس مربعة الشكل ويزيد محيطها على ميل واحد ولها سوران بينهما خنادق ضيقة عميقة ، والسور الاول

قصير اما الثانى فمرتفع وسميك وعليه الابراج العالية الحصينة ويحيط البحر بالمدينة من ثلاث جهات تقريبا ولها ميناء عظيم يسع ما لا يقل عن اربع مائة سفينة ويقال انه يسكنها اكثر من عشرة آلاف عربى وبعض اليهود . » .

وقد ترك باتيستينو دى طونسيس هذا وصفا مفصلا عن حوادث الاستيلاء على طرابلس قال : « حى وطيس الحرب عندما تمكن حامل العلم من نصبه على برج القصر ، فدخل الجيش البرى المدينة يقتل ويشرد العرب الذين كانوا قد اغلقوا عليهم باب القصر والجامع الكبير ، اما رجال البحرية الاسبانية فكانوا يقاتلون جهة باب البحر ، وتغلبوا على مقاومة العرب العنيفة وبعد ان اجتاز الاسبان الاسوار دخلوا المدينة ثم احتل القصر عنوة واخذ فيه شيخ المدينة وابناؤه وزوجه اسرى ، واطلق سراح ١٥٠ مسيحيا كانوا اسرى عند العرب مكبلين فى الاغلال ، ومات فى هذه المعارك ١٥٠ جنديا مسيحيا . .

ويقول مصدر آخر « ان اكبر مقاومة وجدها الاسبان كانت فى الجامع الكبير الذى قتل فيه الفا عربى بين رجال ونساء واطفال » ويقول نفس المصدر : « ان عدد الموقى من الاسبان

كان ثلاثة مئة رجل وكان من بين الموتى كولونيل كبير في الجيش واميرال الاسطول وشخصية اخرى كبيرة من النبلاء . وهكذا قبل ان تغرب شمس ذلك اليوم غربت دولة الشيخ عبد الله المرابط وفشلت كل مقاومة ووقعت جميع النقاط الاستراتيجية في ايدي الاسبان الذين استولوا استيلاء كاملا على المدينة . ودفرف علم فرديناند الكاثوليكي فوق ابراج طرابلس ، وبكى حمام القصر الزاجل ، وهو يودع الشمس بعد ان اقلقته ضربات المدافع الاسبانية ، عرش سيده ونبل ملكه الشيخ عبد الله ، غربت الشمس وكانت قد سالت على الارض الجافة الحارة في ذلك اليوم الجاف الحار دماء حمراء سخنة وتكدست في الشوارع والحارات والازقة والطرق ، قرب الاسوار وقرب القصر وفوق الابراج في صحن الجامع الكبير وعند المحراب وحيشما حلت واينما وضعت قدمك جثت اطفال شاركوا بالعويل والبكاء وجثت نساء مبهورات البطون مقطوعات الائداء وجثت شيوخ وجثت كهول. هذه هي مسيحية الملك الكاثوليكي ولهذا كانوا يسمون مثل هذه الحروب بالحروب المقدسة .

ويقول مؤرخ هذه الحملة سانودو في مذكراته ان جثت

الموقى القيت في صهاريج الجوامع والمساجد والقى ببعضها في البحر طعمة للاسماك واحرق بعض آخر منها .
ولم تكن غنائم الاسبان في طرابلس كبيرة كما كانوا يتوقعون ويعلمون اذ ان الاغنياء فروا باموالهم وخيراتهم الى دواخل القطر والى القرى القريبة من المدينة ، وكل ما امكنهم الحصول عليه كغنيمة يتلخص في سفينة واحدة من الطراز الكبير وثلاثة اخرى من النوع المتوسط وعلى عدد من القوارب ، وغنم الاسبان في الايام التالية للاحتلال عدة سفن اخرى صغيرة وكبيرة كانت آتية من الاسكندرية دون ان تعلم بالاحتلال الاسبانى .

وبعد ان استقرت البلاد في ايدى الاسبانيين بعثوا بالاسرى لتباع في جزيرة صقلية وبلدان ايطاليا ، وارسل شيخ المدينة عبد الله بن شرف الى مسينا (Messina) من اعمال صقلية اسيرا مع ابنائه وازواجه ، الى ان ارتأى شارل الخامس الامبراطور المقدس اعادته الى وطنه تدعيما لسياسته ونفوذه على طرابلس فارجع ، وذكر قنصل دولة البندقية (Venezia) في باليرمو (Palermo) في رسالة له بتاريخ ٣ سبتمبر ، انه وصل الى باليرمو من طرابلس ١٤٠٠ اسير طرابلسى ، وذكر انه

ينتظر ان يصل آخرون غيرهم ، وقد يبعوا بالمزاد العلني باثمان تتراوح بين ثلاث وخمس دوكات (Ducats) عن الاسير الواحد ، اما الاسرى اليهود الذين يبعوا في ايطاليا فقد اشتراهم اخوانهم يهود ايطاليا وحرروهم .

هذا ولا يستطيع المؤرخ ان يتغافل عما كتبه المؤرخون العرب عن الاحتلال الاسباني لطرابلس ، على الرغم ان ما كتبه هؤلاء لا يقنعنا كثيرا ، ذلك لان كثيرا من المؤرخين يحبون ان يفسروا الوقائع التاريخية الكبيرة بالاساطير والخرافات ولهذا لم يسلم ما نقلوه لنا من خبط وخلط في الموضوع وتشويه لجوهر الحقائق ، وليس معنى ذلك انهم كانوا يتعمدون الكذب وانما لانهم ينقلون الاخبار والوقائع عن افواه العامة ويسطرون ما يسمعون دون ان يبحثوا عن مواضع الشك في الرواية والسند وتمييز الاخبار الصحيحة من الغثّة .

وقد روى كل من العياشي وابن غلبون والنائب قصة طريفة عن مقدمات احتلال الاسبان لطرابلس ولكنها اقرب ما تكون الى الخيال منها الى الواقع .

قال ابن غلبون :

« وسبب اخذهم لها (يعنى الجنويين) ان اهلها بعد دخولهم في

طاعة الموحدين كثرت اموالهم وتجاراتهم واطمأنوا ولم يشتغلوا
بالحرب حتى لم تكن لهم خبرة فقدمت عدة سفن للعدو موسوقة
بانواع البضائع وفيها من كل نوع كثير ، فتقدم اليهم تاجر
من تجار المدينة فاشترى جميع ما فيها من سلع ونقدم ثمنها .
واستضافهم رجل آخر صنع لهم طعاما فاخرا واخرج ياقوتة
ثمينة فدقها دقا ناعما بمراى منهم وذرها على طعاسهم فبهتوا من
ذلك ، فلما فرغوا قدم اليهم دلاعا (بطيخا) فطلبوا سكيننا لقطعه
فلم يوجد في داره سكين وكذا دارجاره الى ان خرجوا الى السوق
فاتوا منه بسكين ، فلما رجعوا الى جنوة سألهم ملكهم عن
حالتها فقالوا : ما راينا اكثر من اهلها مالا واقل سلاحا واعجز
اهلا عن دفاع العدو ، وحكوا له الحكايتين ، فتأقت نفسه الى
اخذها وجهازها اسطولا فاخذها في ليلة واحدة بلا كثير مشقة
واستولى عليها ولم ينبج من اهلها الا من تسور ليللا »

ولا شك ان هذه القصة ، كما قدمنا ، هي اقرب ما تكون الى
الخيال منها الى الحقيقة وفي سرد وقائعها ما يحمل على الاخذ
بعدم صحتها ، ويكفى ان نعرف انه كان بالمدينة سوق تباع
فيها السكاكين وان هذه الالة من مستلزمات الحياة المنزلية
التي لا غنى لاحد عنها ، وكيف نأخذ بمنطق هذه القصة وسحق

الياقوت على الطعام ما يدل على عدم سبك حوادثها الا اذا اخذنا به على انه من تصرفات العقول الخبولة ، ومهما يكن من شيء ففي ذكر هذه القصة تصوير لما كانت عليه طرابلس من رخاء وغنى دفع اهلها الى حياة الكسل واهمال العدة لاي طارئ خارجي ، وان اخطأ المؤلف في تصويرها بشكل منطقي مسبوك (١) وفي الوقت نفسه اسند المؤلف هذه الحملة للجنوي لا للاسبان وفي هذا ما يشعرنا بضعف السند الذي نقل منه المؤرخون الثلاث : العياشي وابن غلبون والنائب .

وقد كان التأثير شديدا في البلاد الاسلامية لسقوط طرابلس في ايدي المسيحيين ، الا ان المسلمين كانوا في ضعف شديد لا يستطيعون ان يمدوا يد المساعدة الى الطرابلسيين ضد العدو المشترك . وذكر مارتين سانودو (Martin Sanudo) في مذكورة له مؤرخة في ٢٤ نوفمبر ١٥١٠ ان العرب الطرابلسيين المقيمين في الاسكندرية عندما سمعوا بسقوط بلادهم في ايدي الاسبان اجتمعوا في المسجد ثم خرجوا الى فندق هناك اصحابه جماعة من الاسبان واضرموا فيه النار .

واستقبلت اوروبا المسيحية خبر احتلال طرابلس من قبل

(١) بعيو

الاسبان بابتهاج كبير ، وشجع هذا الانتصار ملوك اسبانيا وقوى آملهم واذكى ابلانهم ومطامعهم فى افريقيا. وعزم الملك فرديناند الكاثوليكي على تعبئة حملة بحرية كبيرة يتراسها بنفسه لتوسيع الفتوحات ، ولهذا كان شتاء وربيع سنى ١٥١٠ و١٥١١ مليئين باعمال التعبئة والتجهيز والاستعداد لحرب واسعة النطاق ، وكان من المقرر ان تطلع من ميناء مالقة ، الا ان سوء الحال فى ايطاليا واهتمام اسبانيا المتزايد بالعالم الجديد جعل الملك فرديناند يغير سياسته ويصرف اهتمامه عن الاستيلاء على افريقيا ، وقد احدث خبر احتلال طرابلس فى ايطاليا ابتهاجا عظيما ، فقد دعا نائب البابا فى بولونيا المسيحيين ان يحتفلوا باحتلال مدينة تسمى طرابلس قال فى خطابه انها عامرة بالسكان. وجرى فى روما احتفال باحتلال طرابلس يوم ١٠ اغسطس وزاد فرح وابتهاج المسيحيين فى اوربا عندما علموا مدى وفرة خيرات هذه المدينة وكثرة ثروتها وقوة حصونها وابراجها ، ولكن مظاهر الابتهاج كانت اروع واعظم فى ايطاليا الجنوبية وبالاخص فى مالطة وصقلية ، وتخليدا لهذا الانتصار على العرب فقد سك نائب الملك فى صقلية مدالية تذكارية .

وتقاطرت التهاني على الملك فرديناند الكاثوليكي بهذه المناسبة
ومن بينها رسالة وردت من القسيس امريكو دامبواس (Fra
Americo D'Amboise) رئيس منظمة فرسان القديس يوحنا في
رودس ، وانتهز القسيس هذه الفرصة واعلم الملك الكاثوليكي
بالانتصار الذي احرزه الاسطول الرودي المسيحي في آخر اغوستو
من تلك السنة على اسطول سلطان مصر قونصوه الغوري في خليج
الاياس (Laiazzo) ورجا من الملك ان يتابع فتوحاته
في افريقيا حتى اراضي مصر املا في ان تتصل قوتاهما هناك .

الفصل الثالث

الاسبان بين جربة وطرابلس

تم لاسبانيا الاستيلاء الكامل على مدينة طرابلس و
الحاميات الاسبانية بالقصر والاسوار واستقر الاسطول في الميناء
ولكن اسبانيا لم تكن تهدف الى اخضاع هذه القاعدة لها و
كما اسلفنا كانت تحاول الاستيلاء على الشمال الافريقي ك
واستيلاء الاسبان على طرابلس سنة ١٥١٠ هو حادث يجب
ان يبحث من وجهة اخرى، ذلك لان حوادث القرن السا
عشر ضمت طرابلس والشمال الافريقي باجمعه ضمن اطار السي
الاوربية .

سقطت القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ م في يد الاتراك العثمانيين
وكان من نتائج تقدم محمد الفاتح وبايزيد الثانى وسليم الاول
في شبه جزيرة البلقان وتوغلهم في اراضي اوروبا المسيحية
ان اشتد النزاع بين الشرق والغرب خصوصا وان العثمانيين
كانوا يبشرون الى الدين الاسلامى الى جانب فتوحاتهم وانتصاراتهم

اما اسبانيا التى استطاعت فى سنة ١٤٩٢ م ان تتغلب على آخر مملكة عربية فى غرناطة فقد كانت تحاول ان توقف هذا التوسع الاسلامى فى اوروبا بتوجيه نظر الاتراك العثمانيين الى الشمال الافريقى حيث بدأت اسبانيا تظهر اولى محاولاتها لاحتلاله ومد نفوذها عليه ، وهاتان حركتان متقابلتان بدأت الاولى من الشرق واتجهت نحو الشمال الغربى ترمى الى فتح اوروبا الى دين الاسلام ويتزعمها الاتراك اما الثانية فاخذت سبيلها من اقصى الغرب واتجهت نحو الشمال الافريقى ترمى الى تمسيحه ، بعد ان صدر مرسوم ملكى من الملكين الكاثوليكين فرديناند ملك اراجون وازابلا ملكة قشتالة سنة ١٥٠٣ م يقضى بطرد جميع المسلمين من شبه جزيرة ايبيريا ، ولقد كان الاسبان آنئذ يشعرون بنشوة انتصارهم على العرب ولذلك كان من الطبيعى ان لا يكتفوا بتحرير بلادهم بل انقضوا على فتح البلدان القريبة منهم وبدأوا مغامراتهم التجارية فكان هجومهم على الشمال الافريقى الذى كان محطة لنفوذ كل دولة قديمة طلبت السيادة على البحر الابيض المتوسط .

اما دولة البندقية فقد كانت مهددة بالغزو العثمانى ولقد اضطرت الى الدفاع عن ممتلكاتها المضطربة الحائرة امام جيوش

وكانت اوروبا الغربية بعيدة عن اطار السياسة العالمية ولكنها بدأت تتقوى وتأسست فيها ممالك كانت تنتظر الفرص لاكتساب السيادة السياسية والاقتصادية ، ولعبت اسبانيا في هذا الدور الملىء بالحوادث دور الزعيم وقادت الحركات القومية الاوربية وصارت محط انظار العالم المسيحي ومحور آمال المسيحيين وامانيهم واستطاع الاسبان في سنوات قليلة بعد تحررهم من السيادة العربية ان يخضعوا بصورة مباشرة او غير مباشرة اهم القواعد على هذا الساحل من افريقيا اذا ما استثنينا جزيرة جربة ومصر وكان الكونت بدرو نافارو يعلم ان احتلاله لمدينة طرابلس فقط لا يجعله بعيدا عن خطر الغزو والهجوم عليه كما ان خطوط المواصلات بين طرابلس واسبانيا وطرابلس وصقلية مهددة في كل ساعة بخطر هجوم قراصنة جربة الذين كانوا لا يفترون عن شن الغارة على السفن المسيحية ، وكانت جربة هي المعقل العادي للقراصنة الذين تفشوا في البحر الضيق الذي يفصل صقلية عن تونس .

وليس في مقدور الكونت بدرو نافارو ان ينظم خطوط الامدادات بالسفن والرجال والعتاد الا اذا امكنه ان يخضع



قصر طرابلس في سنة ١٥٥٩ (نسخة محفوظة في مخزن فلورنسا)

هذه الجزيرة لنفوذ ملك اسبانيا ، كما ان احتلاله لجزيرة يساعده على تنفيذ خططه التالية .

واقلع الكونت بدرو من طرابلس يوم ٣٠ لوليو ١٥١٠ قاصدا جربة في ١٢ سفينة بين كبيرة وصغيرة بعد ان عهد الى احد رجاله واسمه جوم بدرو ريكيسنس (Jayme Pedro Requenses) امر الدفاع عن مدينة طرابلس وترك بين يديه عددا من الرجال وبعض المدافع . واركب الكونت بدرو باقى رجاله فى السفن وحمل معه شيخ المدينة عبد الله بن شرف ومعه ابنائه وازواجه واصهاره وبعث بهم الى باليرمو .

وكانت جزيرة جربة تابعة اسميا لملك تونس الحفصى ولكنها منفصلة عنه سياسيا بسبب ضعف ملك تونس واستفحال امر الشيوخ والامراء والولاة فى هذا الدور فى جميع بلاد الشمال الافريقى .

وكان الكونت الاسبانى يعتقد ان مصير هذه الجزيرة هو الاستسلام له دون اية مقاومة او حرب امام عظمة اسطوله وكثرة عدد جنوده. ورسا الاسطول الاسبانى فى قناة القنطرة فى جربة وانزل القائد ثلاث رجال يتكلمون اللغة العربية ويحملون اعلاما بيضاء اشعارا بمجيئهم للتفاوض

ولعرض رسالة من القائد الا ان سكان جربة كانوا على استعداد للدفاع والمقاومة والقتال لانهم سمعوا بفاجعة احتلال الاسبان لطرابلس وعرفوا جميع ما ارتكبه الاسبان فيها من فظائع وسمعوا بالمذابح التي اقترفوها في طرابلس ، ولذلك استعدوا ووطدوا العزم على عدم التسليم ونشط فرسانهم في خفر السواحل وتفقد السفن التي تقترب من الجزيرة حتى لا ياخذهم العدو على حين غفلة .

ولم يتقدم حاملو الاعلام البيضاء كثيرا في ارض الجزيرة حتى تقدم منهم الحراس المكلفون بخفر السواحل ولم يلتفتوا الى ما كانوا يقولون وما كانوا يعرضون ولم يمهلوهم بل عاجلوهم وقتلوهم اشعارا بعدم قبول اى تفاوض يسلبهم حق التمتع بحكم جزيرتهم ويخضعهم لنفوذ الملك الكاثوليكي كما سبق ان خضع له ملك تونس وملوك المغرب وسكان مدينة طرابلس .

واقترب سكان جربة من الساحل وهم على اتم الاستعداد للحرب وصاحوا بالاسطول الاسباني الذي كان راسيا قريبا من الشاطئ انهم ليسوا مجانين حتى يسلموا جزيرتهم ويستسلموا لجزائريهم كما يستسلم الدجاج وحذروا الجيش الاسباني

واعلموه انهم قرروا الحرب حتى الموت دفاعا عن اموالهم
ونسائهم وشرفهم ودينهم .

وشعر الكونت بدرو نافارو بخطورة ما هو قادم عليه وعلم
ان عرب الجزيرة عازبون عزما اكيدا على المساومة والحرب
وان جميع ما لديه من قوة وعتاد وجوار في البحر كالأعلام
لا تقل من عزمهم ولا تفت في عضدهم. عرف القائد الاسباني
ان امامه معركة ليست سهلة كما كان يعتقد وانه امام
تجربة خطيرة على ما كان يتمتع به الاسبان من سيادة
ونفوذ سياسى وعسكرى قد تذهب بجميع ما امتلكوه
وتجر الملك الكاثوليكي الى فضيحة امام العالم المسيحى
ولذلك قرر الاقلاع عن جربة وامر الكونت بالابحار توا الى
طرابلس وترك هذه الحملة عسى ان يجمع قوة اكبر واسطولا اعظم
وصل الاسطول الاسباني الى طرابلس يوم ٩ اغوستو
١٥١٠ قافلا من جربة ونزل الجنود والبحارة الى البر وفى يوم
الخميس ١١ اغوستو ١٥١٠ استعرض دون بدرو نافارو
رجالهم وكان عددهم خمسة عشر الف جندى مسلح ، اركب
الاسطول منهم اثني عشر الف جندى وترك البقية الباقية فى طرابلس
للدفاع عن المدينة ، ولم يكن الطقس ملائما للابتعاد عن

الشاطئ فاضطر الاسطول الى البقاء في الميناء الى يوم ٢٣ من الشهر نفسه ينتظر تحسن الجو وملاءمة الطقس وهدوء العواصف. وبينما كان اسطول دون بدرو راسيا في الميناء ينتظر الاقلاع الى جربة ظهرت في عرض البحر خمسة عشر سفينة كبيرة وثلاثة اخرى صغيرة تحت قيادة دون قرشيا الطليطلى دوق البا Don Garcia Di Toledo ومعه دياجو دى فير (Diego Di Vera) وثلاثة الاف جندي كانوا مرابطين في بجاية ووصل رجال دون قرشيا الطليطلى الى ميناء طرابلس وهم في حالة اعياء شديدة وتعب كبير لما لاقوه في عرض البحر ولذلك نزلوا الى المدينة ليروحوا عن انفسهم وليذهبوا ما بهم من تعب .

وانضم هذا المدد الى جيش الكونت بدرو نافارو وبقي الاسطولان في ميناء طرابلس الى يوم الثلاثاء ٢٧ اغوستو ١٥١٠ حيث اقلعت جميع السفن قاصدة جزيرة جربة لارتكاب مذابح جديدة هناك ، وابقى القائد الاسباني ثلاثة آلاف جندي على طرابلس تحت قيادة القائدين سامانياقو (Samaniego) وسالومينو (Salomino) وفي يوم الخميس ٢٩ اغوستو رسا الاسطول الاسباني امام

جربة قرب برج كان يتخذ للاستكشاف يبعد عن الشاطئ بميل واحد تقريبا وفي الصباح الباكر من يوم الجمعة نزل الجنود من السفن وهاجموا السواحل سيرا على الاقدام وسط مياه البحر القليلة العمق .

وكان هذا اليوم حارا شديدا الحرارة ولم يكن قرب الساحل آبار او صهاريج يستسقى منها العسكر واضطر بعضهم ان يشتري كس الماء بعشرة قروش طرابلسية ، وتحرك الجيش الاسباني بعد ان انتظمت فرقه قاصدة مهاجمة البلدة وكان الجيش الاسباني يتكون من احد عشر طابورا ، ونصب امام الجنود في الوسط مدفعان كبيران واثنان آخران من الحجم المتوسط وكلف رجال البحرية بسحب هذه المدافع الى الامام .

وبعد ان قطع الجيش الاسباني شوطا من الطريق بدأ الاعياء يظهر جليا على الجند واشتد العطش بين الرجال وعلى الاخص الذين كلفوا بسحب البطاريات وبراميل البارود ، واختل النظام ولم يعد في مقدور الضباط ان يرجعوا النظام الى نصابه ، اشتد العطش وبدأ الجنود يلهثون لهت الكلاب الصادية ويتساقطون امواتا . اما دون قرشيا الطليطلى الذى لبس درعه المذهب وتسلم قيادة الجيش فكان يشجع رجاله

ويعدهم بان امامهم الابار الفياضة والمياه الفضية الباردة والظل الظليل تحت اشجار النخل والزيتون .

وتشجع الجيش قليلا طائعا او مكرها وتعر الجند في خطواتهم بين الياس والرجاء وقطعوا ما امامهم من ارض رملية ، وهم ينتظرون ان يروا بعدها ما وعدوا به ليطفثوا غلتهم ويرووا ظمئهم من ماء الجزيرة البارد الفضى ، فلم يروا شيئا ولم يصادفوا في طريقهم اى شخص صديقا كان او عدوا وكان لهذا الاثر الكبير في تشييط همهم والقضاء على معنوياتهم وكم كان سرور الاسبان كبيرا عندما بدت امامهم خضرة اشجار الزيتون وايقنوا انهم سالمون حقا من الموت عطشا ، وان كثيرا او قليلا مما وعدوا به قد تجلى وظهر ، كان الوقت ظهرا عندما وصل الجنود غابات الزيتون في جزيرة جربة وكانت الشمس حارة تلمح الارض وتشوى الوجوه والاجسام ، انها شمس اغوستو في الشمال . الافريقى دون شذود عن المعتاد ، ووجد الجنود وسط هذه الغابات وعلى قارعة الطريق الابار فعلا غير مقللة او مردومة ومياهها الصافية النقية الباردة تكاد تدعو الاسبانى ان يلقي بنفسه فيها حتى يرتوى ، ولكن عرب الجزيرة اشفقوا عليه من الارتقاء

في احضان البئر فتركوا قرب هذه الابار جرات وقللا فارغة
وقدرا كافيا من الحبال لتساعد الجنود الاسبان الساكنين ورد
الماء واستخراجه من الابار دون مشقة او عناء .
ياله من انسانية ثعلب

ولكن اين عرب الجزيرة يا ترى ؟ هل تركوا ارض اجدادهم
عندما صبحهم الجيش المغير وغادروا ربوع جزيرتهم عندما
صاح صائحهم : الاسبان الاسبان الاسطول الاسطول ؟
بدت جربة مقفرة من السكان جرداء من الحياة وظن
الاسبان انهم بمنجى من العدو او انهم قادمون على اكتساح
ارض لا يسكنها انسان فاختلت صفوفهم وتركوا مراكزهم
وفقدوا شعورهم امام منظر الابار والقلل والجرار وتشتتوا
في جربة وضوضاء وتسابقوا الى احتضان القلل وتقبيل شفاهاها
الجافة وبدأت معركة حامية بين الجند انفسهم لافتكاك الجرار
والقائها في الابار للحصول على قطرة من الماء .

ولم يترك عرب جربة جزيرتهم غداة ظهور الاسبان اسام
سواحلهم بل وضعوا خطة حكيمة للقضاء على الجيش المغير
على الرغم من قلة عددهم وقلة عددهم ونقص اسلحتهم ، فلقد
استعد سكان جربة قرب هذه الابار للانقضاض على الاسبان

عندما يتهافون على الماء وتختل صفوفهم وتبدو عليهم
الفوضى . كانت فرصة مواتية لعرب الجزيرة فلقد انقضوا على
الاسبان في شدة وعنف وطوقوهم من كل مكان ونزلوا عليهم
ضربا بالسيوف والرماح ولم تنزل جرعه الماء بعد الى اجوافهم
ولم تهذا المعركة التي اضرموها بينهم على الماء .

وكان عدد الجيش الذي استطاع سكان جربة ان يجمعوه يتالف
من ثلاثة آلاف فارس وبعض المشاة ، هذا ما يدعيه المؤرخون
الاجانب ، ونحن نعتقد ان هذا العدد مبالغ فيه كثيرا ولا
نظن ان سكان جربة كان لديهم ثلاثة آلاف فارس وانما
ذكر المؤرخون الاجانب مثل هذا العدد من الفرسان
ليقللوا من فضيحة اندحار جيش الملك الكاثوليكي امام جزيرة صغيرة
ليس لها اية اهمية سوى موقعها الجغرافي وليبرروا هذه
الهزيمة امام العالم المسيحي الذي بات ينتظر انتصارا جديدا
وغنائم اخرى من العرب .

ولم يكن امام الاسبان المغيرين ازاء هذا الا الانسحاب
من جربة بالبقية الباقية من الجيش فكان الجرى والتسابق
والهروب الى السفن الراسية امام الشواطىء في فوضى وخوف
وذعر .

واقلمع الاسطول الاسباني سن جربة يوم ٣١ اغوستو متجها نحو طرابلس ولم يصلها الا يوم ١٩ ستمبر ١٥١٠ بسبب عواصف شديدة اعترضته في عرض البحر. وبلغ عدد القتلى من الاسبان في هذه المعركة ثلاثة آلاف وكان عدد الاسرى كبيرا جدا ومات في المعركة دون قرشيا الطليطلى دوق البيا وكثير من النبلاء الاسبان والقواد الكبار. اما عرب طرابلس فانهم انتهزوا فرصة غياب الاسطول الاسباني وهاجموا على المدينة وتسلقوا الاسوار الا انهم لم يظفروا منها بطائل واضطروا الى الرجوع . وفي اكتوبر من السنة نفسها غادر الكونت بدرو مدينة طرابلس تاركا فيها ثلاثة آلاف جندي تحت قيادة دياجودي فيرا (Diego Di Vera) ولكن العواصف الشديدة التي لقيها بعد ابتعاده عن الشواطىء اجبرته على العودة بعد ان خسر خسائر فادحة في السفن والرجال ونظم الكونت بدرو نافارو بعد استقراره في طرابلس حملة اخرى على جزيرة قرقة القريبة من جربة امام السواحل التونسية. للحصول على قواعد لتموين سفنه بالماء والاستعداد لحملة اخرى على جزيرة جربة ، وترك الكونت بدرو نافارو في قرقة بعد الاستيلاء عليها حامية تتالف من ٤٠٠ جندي كلفوا

بتنظيف الابار وحفرها والمحافظة على الجزيرة ، وقبل ان تبشر هذه الحامية اعمالها هجم سكان قرقنة عليها ومزقوا جنود الاسبان شر ممزق وفتكوا بهم فتكا ولم ينج منهم واحد ومات مع الجنود الكولونيل البندق جيرولامو فيانيلو .

وبهذا انتقم سكان جربة وقرقنة لاخوانهم سكان مدينة طرابلس واخذوا بثأر اخوتهم الذين قتلهم الاسبان .

على ان الطرابلسيين لم يهدأ لهم بال ولم يستسلموا للكوارث التي حلت بهم وببلادهم بل كانوا يذكرون شرارة المقاومة والحرب ويدعون الى القتال وينادون بالجهاد في كل بلدة حلوا بها. كانوا في هذه المدة يضعون الخطط ويطلبون النجدة من اخوانهم وذويهم في دواخل القطر لطرد العدو المشترك ، وتالفت مراكز عديدة للمقاومة والتسلح في الجبل الغربي وغريان وتاجوراء .

وشعر السلطان الحفصى في تونس ان الاسبان يكيّدون له وانهم يتحينون الفرص للقضاء على بلاده، واحتسلاها عسكريا واقتطاع اجزائها جزءا جزءا رغم ما بينه وبين الاسبان من محالفات لذلك اخذ يحتاط ويستعد للدفاع عن بلاده ولم

يتوان السلطان ابو عبد الله محمد بن الحسن في مد يد المساعدة للطرابلسيين حلفائه الطبيعيين ضد العدو المشترك بل يقال ان نية السلطان ابي عبد الله محمد الحفصى قد اتجهت الى تعبئة جيش من تونس والزحف به على طرابلس لاعادتها الى دار الاسلام .

وحكى القيروانى ان السلطان محمد بعث بجيش بقيادة محمد ابي شداد قاضى توزر بعد ان علم ان الشيخ عبد الله سلم طرابلس الى المسيحيين .

وسثم الكونت نافارو البقاء في طرابلس بعد هذه الانهزامات المتوالية في جربة وقرنة فقلع في اسطول يتالف من ثلاثة وعشرين شراعا واربعة آلاف جندى ورحل الى جزيرة لامبيدوسا وفي فبراير من سنة ١٥١١ م اعاد عرب طرابلس الهجوم على المدينة وكان بها ما يقرب من خمسة آلاف جندى اسباني ابقاهم الجنرال الاسباني تحت قيادة دياجو دى فيرا . ويدعى المؤرخون الاجانب ان عدد المهاجرين من العرب كان اربعين الفا وعلى الرغم من كثرة عددهم فانهم لم يقدرُوا على اجتياز الاسوار والتغلب على مقاومة الاسبانيين المحاصرين في القلعة ووراء الاسوار .

وطلب القائد الاسبانى فى طرابلس دياجو دى فيرا من الجنرال الكونت بدرو نافارو فى لاسدوسا ان يمدّه بجيش ليفك الحصار وان يرشده الى اسهل الطرق لابعاد خطر العرب ، فاشار عليه بان يعد لغما كبيرا واعلمه بانه قادم اليه .

وانفجر اللغم قرب اسوار المدينة وذهب ضحيته كثير من المهاجمين كما سبب قتل كثير من الاسبان ومات فى هذه الحملة الكونت بدرو نافارو ولم يظهر اسمه بعد فى تاريخ طرابلس .

ولا نريد ان نناقش صحة هذا الخبر وعدد المهاجمين الذين عجزوا عن استعادة طرابلس وافتكاكها من ايدى العدو لان المبالغة ظاهرة بينة فى القصة كلها وكل ما نفهمه هو ان الهجوم على مدينة طرابلس فى فبراير من سنة ١٥١١ كان شديدا جدا على الاسبان وان العرب كانوا جادين فعلا فى افتكاك مدينة طرابلس وان حصون المدينة واسوارها وابراجها كانت منيعة قوية على رد هجمات كبيرة قام بها عدد من الجنود زعموا انه يقرب من الاربعين الفا .

والظاهر ان الجيش الذى بعث به السلطان ابو عبد الله محمد الحفصى والذى ذكره المؤرخ القيروانى جاء حقا الى

طرابلس واشترك في حملة فبراير ١٥١١ م ولذلك امكن ان
يجمع الطرابلسيون جيشا يضمونه الى الجيش التونسي..

الفصل الرابع

جالة طرابلس في العهد الاسباني

يستفاد من الرسائل التي كان يبعث بها قنصل البندقية في باليرمو الى حكومته ان الحالة في طرابلس في آخر سنة ١٥١١ كانت هادئة ورغم هذا الهدوء النسبي الذي ساد المدينة في اواخر هذه السنة فان الاسبان اضطروا الى اجراء تحصينات اخرى فاعادوا بناء البرج والاسوار والقصر .

وجاء الى طرابلس سنة ١٥١٨ الحسن بن محمد الوزان وهو من مواليد غرناطة عاصمة المسلمين بالاندلس ثم فر من الاندلس على اثر مرسوم الملك الكاثوليكي وانتقل مع عائلته الى وزة بالمغرب وهناك تعلم اللغة والادب ثم رحل الى بلاد كثيرة يكتسب ويؤلف عن كل ما يراه ، ووقع في جزيرة جربة اسيرا في ايدي القراصنة المسيحيين الذين حملوه الى روما وقدموه هدية للبابا ليون (Papa Leone) وتقبله البابا قبولاً حسناً وقدره لعلمه وغزارة اطلاعه وسعة معلوماته واجبره ان يترك دينه

فاضطر الحسن بن محمد الوزان ان ينزل عند رغبة
البابا فعمده وسماه البابا جوان ليون الافريقى .
وسكن جوان ليون الافريقى روما وصار من الحاشية الباباوية
وتعلم اللغة الايطالية وترجم كتابه فى الرحلات بنفسه
الى هذه اللغة . ويقول جوان ليون الافريقى (اى الحسن بن
محمد الوزان سابقا) انه عندما قدم طرابلس سنة ١٥١٨ وجد
المدينة تسترجع شيئا فشيئا عمرانها ونشاطها كما ذكر
ان الاسبان قد حصنوا قصر طرابلس وجعلوا له اسوارا قوية
وجهازوه بالمدافع . ويقول ايضا ان بيوت طرابلس جميلة بالنسبة
لبیوت تونس وان الميادين منظمة والاسواق تمتاز بوجود
كثير من المصنوعات وبالاخص النسيج ، ويذكر انه ليس
فى طرابلس آبار او عيون ماء وان السكان يستعملون
مياه الصهاريج ، وراى ليون الافريقى فى طرابلس كثيرا من
المساجد وبعض المدارس ومستشفيات وملاجىء ، ويقول ليون
الافريقى ان طعام السكان غير جيد وانهم يستعملون
البازين غذاء اساسيا .

وزار جوان ليون الافريقى مدينة تاجوراء وقال انها كثيرة
اشجار النخيل وكثيرة البساتين وانها صارت كبيرة عامرة بعد

احتلال الاسبان لطرابلس وفرار كثير من سكانها الى تاجوراء .
امتاز العهد الاسبانى بتدهور النشاط التجارى وتوقف
اغلب الحركات الاقتصادية التى اشتهرت بها طرابلس
وذكرها المؤرخون الثقات والرحالون الذين جاءوها من قبل
لان الاسبان احتكروا سوق طرابلس لانفسهم وفرضوا رسوما
جمركية عالية على الموردين الاوربيين الاخرين تبلغ هذه الرسوم
٥٠ ٪ مضافا اليها رسومات محلية اخرى ، فى حين انهم
اعفوا التجار الاسبانيين من اى رسم جمركى فى مينائى
طرابلس وبجاية ، وكان لهذه التصرفات من قبل الاسبان
اثر سىء لا على التجار الطرابلسيين فحسب بل حتى على
التجار البندقيين الذين كانت لهم مصالح تجارية واسعة
مع طرابلس حتى اضطروا الى مخاطبة الامبراطور شارل الخامس
فى سنة ١٥١٨ بواسطة سفيره فى البندقية عن الصعوبات
الكبيرة التى صاروا يلاقونها للتجار مع طرابلس .

ولا شك ان تجارة طرابلس فى هذه المدة وازاء هذه العراقيل
التي وضعها الاسبان صارت تتدهور يوما بعد يوم بسبب
فرض الرسوم الجمركية المرتفعة من جهة وبسبب حصار المدينة
من قبل العرب من جهة اخرى وبقاء سكان المدينة وتجارها

منعزلين محرومين من الاتصال بغيرهم خارج القطر وداخله .
ومن الطبيعي ان تزدهر هذه التجارة في موانئ اخرى
بعد ان ضيق الاسبان الخناق على المدينة ولا بد لتجار
البندقية وتجار السودان ان يبحثوا عن محطة اخرى ليست
خاضعة للاسبان على الساحل الطرابلسي ليتبادلوا فيها
البضائع دون رسوم جمركية باهظة . وهناك لعب ميناء
مصراته دورا هاما في احياء ما كاد يموت من نشاط اقتصادي
في البلاد وصار تجار السودان والبندقية يرتادون ميناء مصراته
ولهذه الاسباب تناقص دخل الحكومة في مدينة طرابلس
تناقصا فظيعا ولم يعد ما يجبي كافيا لادارة البلاد والصرف
عليها وسد حاجياتها .

وفي سنة ١٥١٣ ولى ملك اسبانيا على طرابلس دون هوجو
دى منكادا (Don Hugo Di Moncada) نائب الملك في
صقلية ، خلفا لديداجو دى فيرا واجرى له ١٢ الف دوكت سنويا
لتغطية العجز المالي في ادارة البلاد .

وبهذا صارت مدينة طرابلس تابعة في ادارتها الى صقلية وارسل
دون هوجو دى منكادا واليا على طرابلس من قبله جوان
فرنشيسكو باترنو (Giovanni Francesco Paternò) وسعى

نائب الملك فى صقلية فى تعمير مدينة طرابلس بعائلات صقلية
حتى يؤمن ملكه فيها ويوطد اقدمه ولذلك اصدر فى قطنيا
من اعمال صقلية مرسوما ملكيا فى يوم ٢٦ اكتوبر ١٥١٣
يعلن فيه الى من يرغب فى الهجرة الى طرابلس انه يمنهم
بيوتا جيدة وارضى للزراعة وانه يعفيهم من الضرائب
ويبرئهم من جميع الجرائم اذا كانوا قد ارتكبوا جرائم من قبل
و بموت فرديناند الكاثوليكي سنة ١٥١٦ والكردينال
(Ximenes) توقف اهتمام الاسبان بالمسالة الافريقية
لان خليفته شارل الخامس الامبراطور المقدس كان منصرفا الى
الاهتمام بالمعارك القائمة انذاك فى ايطاليا والى الخلاف الشديد
بينه وبين خصمه فى الملك فرانسوا الاول .

ولا يذكر لنا التاريخ كثيرا عن طرابلس فى هذه السنوات
بل طوى صفحات سنوات كثيرة دون ذكر شىء قليل او
كثير عما كان يجرى فى طرابلس .

وفى سنة ١٥٢٥ انتشر فى طرابلس مرض الطاعون وفتك فتكا
شديدا بالجنود الاسبانيين وبالسكان المدنيين .

وحاول الاسبان مرة ثالثة الاستيلاء على جربة فى سنة ١٥٢٠
وتوجه دون هوجو دى منكادا بمائة سفينة تقل ١٣٠٥٠٠

من المشاة و ١٠٠٠ فارس الى هذه الجزيرة لاختضاعها والانتقام منها . وعندما تقدم الجيش في الجزيرة هاجمه العرب في شدة وعنف واحاطوا به من كل حذب وصوب وخسر المسيحيون ٦٠٠ رجل وكان الباقي مهددا بالابادة والفناء الكامل ولذلك ما كان من دون هوجو دى منكادا الا ان يسحب جيشه من جربة ويرجع خائبا كما رجع من قبله الاسبان .

اما شيخ طرابلس عبد الله بن شرف الذي حل اسيرا الى باليرمو عند نزول الاسبان بالمدينة فقد اطلق سراحه بعد ١٠ سنوات قضاهما في الاسر ، والظاهر ان الطرابلسيين الذين فروا الى الضواحي عند نزول الاسبان وكونوا جيوش المقاومة كانوا قد عقدوا العزم على ان لا يرجعوا الى بلادهم الا اذا اطلق سراح شيخهم ورجع الى وطنه . ولم يستمع نائب الملك دون هوجو الى طلب اللاجئين الطرابلسيين في بادئ الامر - وحاول تعمير المدينة بالمسيحيين الصقليين ولكنه اضطر اخيرا الى اطلاق الشيخ عبد الله لاستخدام نفوذه في تسوية المشاكل السياسية . ورجع على اثر رجوع الشيخ عبد الله خمسمائة عائلة طرابلسية الى مساكنها داخل المدينة وبدأت الحياة المدنية تتحسن يوما بعد يوم. وفي هذا الوقت بدأ يتزايد نفوذ القراصنة العثمانيين

على سواحل افريقيا الشمالية مهددين سلطة الاسبان على طرابلس .
والقراصنة العثمانيون هم جيش الطليعة للامبراطورية العثمانية
على هذه السواحل ، فهم الذين هياؤا هذه الاراضى للسيادة
التركية ، وبدأ اهتمام الاتراك فى شئون الحوض الغربى من
البحر الابيض المتوسط منذ اوائل القرن السادس عشر اى عندما
بدأت اسبانيا حملتها على الشمال الافريقى وبدأت اولى السفن التركية
تبرز فى مياه طرابلس سنة ١٥١٢ واخذ اسم خير الدين
برباروسا يظهر الى الوجود .

من هو خير الدين برباروسا ؟

كان يعقوب بن يوسف ينشيريا من الروملى وكان له اربعة
اولاد هم اسحاق وعروج وخسر والياس . فاختار كل منهم
مرتزقا للمعيشة ووقع اختيار عروج على القرصنة وما عثم ان ظهر
مظهرها كبيرا واستخدمته الدول الاسلامية لارهاب القوى
النصرانية المتهجمة على سواحلها والتحق خسر باخيه وعرف
من ذلك العهد بخير الدين ولقب كلاهما برباروسا اى الاشقران
وفى هذه الاثناء كانت الدولة الزيانية (فى الجزائر) قد نالت
كل الميل الى السقوط واستولى الاسبان على المرسى الكبير
ووهران وبجاية وغيزها وكانت ولاية قسطنطينة تابعة للحفصيين

وعليها ابوبكر الحفصى ، وقد تعاهد الاشقران مع بنى حفص ان يعملوا على حسابهم وجعلوا مركزهما بجزيرة جربة وحلق الوادى على مقربة من الحضرة الافريقية ، وطلب ابو بكر من الاشقرين ان ياخذوا له مدينة بجاية من الاسبان ولكنهما لم يفلحا فى انتزاعها ثم انهما هجما على مدينة جيجل التى كان بها مركز تجارى للجنويز فأخذوها باعانة الجزائريين. ولما رأى البربر من كتامة نجاح عروج بجيجل بايعوه الامارة فكون منهم الجيوش وهجم بهم على بجاية للمرة الثانية وبلغها فى شهر اغسطس ١٥١٤م وكان قائدها الاسبانى دون رامون كيرود ، ولم ينجح عروج هذه المرة ايضا واضطر الى الانسحاب وهجم عليها للمرة الثالثة فى ربيع ١٥١٥ وادخل اسطوله بنهرها ووفدت عليه العسكر من البر تحت قيادة الامير الحفصى عبد العزيز امير قلعة ابى العباس واحد القاضى الذى اسس امارة بجبال الجرجرة سنة ١٥١١ ودام حصار بجاية ثلاثة اشهر خسرفها عروج العدد الجهم من جنوده واضطر الى الجلاء ، ولما كانت مياه نهر المرسى قد جذرت لم يستطع ان يقلع بسفنه فدمرها وذهب برا الى بجاية وهناك ارسل اليه السلطان سليم الاول اربعة عشر سفينة جزاء له على اعماله التى قام بها .

وتتقدم الى الجزائر واخذها ورفع على حصونها علمه الاخضر
والاصفر والاحمر وضرب السكة باسمه واقام بها كلك مستقل مطاع ،
وعانت جنوده فيها فسادا فمل اهلها وطاتهم واستنجدوا باسبانيا
فلبت مطلبهم وارسلت بعثة حربية فى شهر سبتمبر ١٥١٦ تحت
قيادة دياجو دى فيرا ونزلت جنوده بباب الوادى من المدينة
يوم ٣٠ سبتمبر ، وتناوشوا مع الاتراك مدة يومين . ثم ان
ريحا شرقية هبت فاصبحت خطرا على الاسطول الاسبانى واجبر
دى فيرا على الانسحاب ففتح عروج ابواب المدينة وهجم على
الاسبان واعانه العرب على ذلك حتى لم يبق من الجيش
الاسبانى الفار الا بعض مئات التحقت بالسفن التى كسرت غالبها الصخور
وقتل عروج فى معركة غربى تلمسان فقام بالامر بعده اخوه
خير الدين فاستنجد بسليم الاول لمحاربة النصرانية فوجدها
فرصة جديدة لاذكاء نار الجهاد ضد اوربا المتعصبة بالتهجمة على
سواحل الاسلام ودخلت الجزائر التابعة لخير الدين تحت
تبعية الاستانة ولقب خير الدين ببلاى بك وخوله السلطان
الاستقلال الداخلى وحق ضرب السكة وارسل اليه السلطان
نجدة كبيرة ، وارسلت اسبانيا بعثة عسكرية لمداواة الكلوم
التى اصابها وجعلتها تحت قيادة هوجو دى منكادا فى صيف

١٥١٩ واخذ هذا القائد كدية الصابون بالجزائر واستقر بها ثم أن ريحا عاصفة هبت على الاسطول الاسباني فدمرته فاهتبل خير الدين هذه الفرصة لكي يقضى على الحملة القضاء الاخير فقتل ما قتل واسر ما اسر ولم يفلت من الاسبان الا القليل .

وقوى اسطول خير الدين باربا روسا وصار ينشر الرعب في جميع انحاء البحر الابيض المتوسط ويهدد الممتلكات الاسبانية في افريقيا وتعذر على السفن المسيحية عبور مياه هذا الخوض . وحاول خير الدين احتلال جربة سنة ١٥٢٥ ، ولا شك ان قوة اسطول خير الدين الذى بلغ ٨٠ قطعة واندفاعه على القطعات الاسبانية جعلت مركز الاسبان في طرابلس والمغرب في خطر دائم ومن جهة اخرى كان الطرابلسيون يضيقون على الاسبان ويهجمون عليهم كلما وجدوا قوة وضيقوا عليهم ايضا في التموين والاتجار مع القرى القريبة . ولم يسكن شيخ المدينة عبد الله الى الاسبان ولم يخضع لنفوذهم كثيرا بل فر من المدينة والتحق بالمجاهدين في تاجوراء لينظم هجوما عنيفا على الاسبان ولكن خوف الاسبان الشديد كان من اشتراك الاسطول العثماني في عمليات غزو المدينة خصوصا وانهم سمعوا غير ما مرة ان السلطان سليم الاول عازم على احتلال طرابلس .

وما كان من الاسبانيين ازاء هذا الخوف من الوقوع في ايدى العرب او الاتراك الا ان يوجهوا اهتمامهم الى تحصين المدينة وقصرها ومينائها بعد ان هدموا بيوت المدنيين العرب واستعملوا حجارتها في بناء القصر والقلاع . ووضعوا بعض المدافع الكبيرة على الحصون .

جددت القلعة الشرقية من القصر المطلة على الشارع المؤدى الى زاوية الدهمانى وسيدى الشعاب وسميت هذه القلعة باسم القديس جاكو وسميت القلعة الثانية التى تشبه فى شكلها مقدمة السفينة والتى تشرف على شارع العزيزية باسم القديس جورج اما القلعة المبنية فوق المدخل الرئيسى للقصر فسميت باسم القديسة بربرة (S. Barbara) والى جانب هذه التحصينات التى اجريت على القصر توجد سلاسل اخرى من الاستحكامات عند مدخل الميناء بنيت على الجزائر الصغيرة التى وصل بعضها ببعض وسوى بها رصيف الميناء ، واقام الاسبان حيث توجد اليوم المحطة اللاسلكية البحرية فى باب البحر برجا سموه باسم القديس بطرس ويسمى هذا البرج ايضا بالبرج الاسبانى وهو يخرس المدينة من الجهتين الشمالية والغربية .

وكان تل الظهرة المرتفع قليلا اكبر خط يهدد المدينة

من الجهة الجنوبية ولذلك قامت اكبر التحصينات فى القصر
والاسوار من هذه الجهة .

ولمدينة طرابلس فى العهد الاسبانى اربعة ابواب قامت على
كل باب ابراج عالية حصينة .

الاول : باب زناته وهو المسمى اليوم الباب الجديد وسمى بهذا
الاسم لانه كان يؤدى الى مضارب قبائل زناته البربرية
ويؤدى الى جنوب غربى المدينة .

الثانى : باب البحر، وهو كائن فى الشمال الشرقى من المدينة بالقرب
من قوس مركوس اوريليوس جهة مسجد سيدى عبد الوهاب
وسمى بهذا الاسم لانه يجهز الى البحر والميناء

الثالث : بابان احدهما خارجى واقع فى اول سوق المشير اليوم
والثانى فى آخر هذا السوق قرب الساعة التركية التى بناها
على باشا ويسمى هذا الباب بباب هواره لانه يجهز الى
قبائل هواره البربرية المضاربة شرق المدينة وجهة الخمسين
ويسمى هذا الباب ايضا بباب عبد الله ، وكثير من المؤرخين
مثل التيجانى اطلقوا عليه باب البر او باب الستارة او باب
المدينة .

الرابع : باب العرب ، يفتح نحو الجنوب واطلق عليه الاسبان

اسم باب النصر والظاهر ان هذا الباب كان مفتوحا حيث
باب الحرية الذى فتحته الحكومة العثمانية سنة ١٩٠٩ م
وشعر الاسبان ان هذه التحصينات غير كافية لرد هجوم
تركى كبير ولذا صرفوا كثيرا من عنايتهم لاضافة ابراج
اخرى للدفاع عن الميناء فشرعوا فى بناء برج المندريك عند مدخل
الميناء حيث كانت توجد منارة ميناء مدينة طرابلس .
اما القصر فكان اشبه شئ بجزيرة يحيط بها الماء من جميع
الجهات ويمتد بين القصر وبين المدينة جسر متحرك يمد نهارا
ويسرف ليلا .

الفصل الخامس

فرمان القديس يوحنا في طرابلس

بدأت هذه المؤسسة حياتها كمنظمة خيرية دينية ، وكان لها في مدينة القدس ، قبل الحروب الصليبية ، مأوى لمساعدة المحتاجين خصوصا الحجاج المسيحيين الذين يزورون فلسطين، وعندما نشبت الحروب الصليبية حولت هذه الهيئة الى منظمة عسكرية تعنى بالاختصاص بمعالجة الجرحى في المعارك الحربية .

وعندما انتصر صلاح الدين الايوبي على الصليبيين طرد من القدس فرسان القديس يوحنا مع من طرد من الصليبيين ، فنقلوا مركزهم الى عكة بفلسطين وبقوا فيها الى سنة ١٢٩١ م حيث طردوا منها ايضا فنقلوا مركزهم الى جزيرة رودس .

واسس الفرسان في جزيرة رودس مملكة مسيحية تحت رعاية البابا وحماية الملوك المسيحيين ثم مدوا نفوذهم على الجزر القريبة من رودس (جزر الدوديكانيز) .

وقد اجتنبت هذه المؤسسة مبادئها الانسانية التي اسست من

اجلها وتحولت الى عصابة طابور خامس في فلسطين ثم انقلبت الى عصابة من القراصنة في الحوض الشرقى من البحر الابيض المتوسط وهذا ما دعا صلاح الدين الايوبي الى طردهم من بلاده واثرة رؤساء هذه المنظمة وحبهم للسيطرة والنفوذ ومطامح الملوك المسيحيين ورغبة البابا في توسيع نفوذه كل ذلك دعى بالفرسان المسيحيين ، فرسان القديس يوحنا ، الى حرب مع المسلمين لا قدرة لهم عليها وجعلهم يتحولون من طريقهم الانسانى الى حرب ودماء وموت .

استقر فرسان القديس يوحنا في رودس وبدأوا يعرقلون حركات الاسطول العثمانى في بحر الارخبيل والحوض الشرقى كله ولم تكن لديهم قوة لمقابلة الاسطول العثمانى وجها لوجه بل كانوا يلجأون الى القرصنة ، ولم يكن الفرسان فرسانا كراما بالمعنى الصحيح وانما كانوا انذالا يترصدون لسفينة خرجت وحدها فيفتكون بها ويصطادونها ويدخلون موانئهم كلما رأوا سفن الاتراك ملأت عليهم البحر .

ولا شك ان هذه الاستفراقات اقلقت ملوك بنى عثمان ، وسم سليم الاول من هذه المضايقات وإراد ان يفتك بقراصنة القديس

يوحنا ويطهر البحر منهم ، فطوق الجزيرة باسطول ضخمة وجيش كبير يبلغ عدده مائتي ألف جندي حاصروا الجزيرة ستة اشهر واخيرا سقطت جميع القلاع والحصون في يد سليمان العظيم واستسلمت القوى المسيحية له . كان ذلك في ٢٦ ديسمبر ١٥٢٢ م .

ولم يكن سليمان جبارا سفাকা فقد وهب فرسان القديس يوحنا ارواحهم واموالهم ولم ينتقم منهم جزاء ما كانوا يعملون بل سمح لهم ان يغادروا الجزيرة دون اذى او ضيم وترك لهم الحرية الكاملة في اختيار البلاد التي يقصدونها .

وفي الليلة الاولى من عام ١٥٢٣ دكب الفرسان سفنهم وفي قلوبهم اسى وفيها حسرة وبين جوانحهم هوى لهذه الجزيرة الجميلة التي هموا بتركها الى الابد ، وتجيش في انفسهم ثورة وميل الى الانتقام من المسلمين ، ولكن كيف ذلك ؟

في هذه الليلة وقف سليمان العظيم فوق اعلى ابراج الجزيرة يشيع بنظره سفن المسيحيين ويمتع ناظريه بقلاعهم تبتعد حائرة فوق الاسواق المضطربة على شواطىء رودس الجميلة .

واختفت هذه السفن وراء الافق وكان يخفق على سفينة القيادة علم رسمت عليه صورة العذراء ذات الالام السبعة

وبين يديها جثمان ولدها المقدس رمزا الى آلام الفرسان وشدة
جزعهم وقد عبرت الدموع عن هذه الالام وتلك
الفاجعة .

وبسقوط رودس ، وهى آخر جبهة حصينة ، للدفاع . عن
المسيحية الشرقية من الضغط الاسلامى ، فقدت منظمة فرسان
القديس يوحنا اهل مراكزها واقواها ، ففيها خمسة عشر برجا
وقصر منيف لسكنى رئيس المنظمة الذى كان يسمى بالمعلم
الاعظم . وكان فى رودس ايضا مدارس فخمة وكنائس عظيمة
وقصور للفرسان ويوت لرجال السلاح ، وتقوم خمسة قلاع
قوية لحراسة الجزيرة وبها ميناء مزدوج ، وقراها خصبة غنية .
اتجهت سفن فرسان القديس يوحنا بعد مغادرتهم للجزيرة
نحو ميناء شيفيتافىكا (Civitavecchia) بايطاليا بدعوة
من البابا كليمنت السابع (Clemente VII) وشيدوا كنيستهم
فى فيتيربو قرب روما .

الا ان الفرسان كانوا يخافون ان البقاء فى ايطاليا يجعلهم
بعيدين عما يطمحون اليه من السيطرة والسيادة والحكم ،
وليس فى بقائهم فى حماية البابا ما يشبع رغباتهم الملحة فى
اقامة دولة صليبية للقرصنة ولطاردة سفن المسلمين فى البحر

الايض المتوسط ، ولذلك رأى رئيس هذه المنظمة الاب فيليب فليبير
دى ليسل آدام (Fra Filippo Villiers de L' Isle Adam)
ان يخاطب شارل الخامس امبراطور المملكة الرومانية المقدسة ليرجوه
ان يقتطع للمنظمة جزيرة مالطة وقوزو لتكون مركزا يشن منه
الغارات على البلاد الاسلامية حتى تسنح لهم الفرصة فينتقلون
الى قاعدة ثانية اكثر ملاءمة لهم .

ولا يخفى على فرسان القديس يوحنا طبيعة جزيرة مالطة
كما لا يخفى عليهم قوة طبيعتها وصعوبة السكنى فيها ،
اذ تعتمد مالطة في مؤونتها على صقلية والبلدان الاخرى ، وقراها
فقيرة غيمير صالحة للزراعة .

وليس امام الفرسان امل للحصول على مركز اكثر ملاءمة
في ذلك الوقت ، وتقبل الامبراطور شارل الخامس طلب الفرسان
بالموافقة والرضا واطهر استعدادا للتنازل عن مالطة
وقوزو لهم على شرط ان تتعهد منظمة فرسان القديس يوحنا
بالدفاع عن قصر ومدينة طرابلس . ويرمى الامبراطور شارل
الخامس بتنازله هذا الى تكوين جبهة دفاع اولى عن ممتلكاته
في جنوب ايطاليا والتخلص بصورة مشرفة من طرابلس وقد
صارت تكلف خزينته اثني عشر الف دوكات سنويا ، على ان

احتفاظه بها سبب لديوانه العسكرى مشاغل كبيرة اذ فى سقوط طرابلس فى ايدى العرب او الاتراك ضياع لهيبته وخسران لنفوذه امام العالم المسيحى .

ولم يكن هذا العرض السخى من طرف الامبراطور شارل الخامس قد ارضى فرسان القديس يوحنا ، بل قابلوا الشرط بشيء من الاستعاض والفتور ، وادركوا ما كان يرمى اليه الامبراطور بذلك وهو زجهم فى حرب لا هوادة فيها ولا نهاية لها مع المسلمين العرب او الاتراك الذين كانوا يتربصون كل فرصة سانحة للتقضاى على المدينة واقتكاكها واسترجاعها الى اصحابها الطبيعيين . وكان الفرسان يرغبون فى بقاء الاسبان فى طرابلس ليؤمنوا احتفاظهم بالجزيرة وابتعادهم عن خطر هجوم تركى عليهم فى الجزيرة . هذا وفى الوقت نفسه لم يكن فى استطاعة الفرسان ان يدافعوا عن مدينة طرابلس وان يحموها من هجوم عربى مسلح فضلا عن هجوم تركى كبير لوقوع هذه المدينة بعيدة عن ديار المسيحية ولعدم امن الطرق البحرية بسبب تفشى القراصنة العرب والاتراك فى الحوضين الشرقى والغربى من البحر الابيض المتوسط وازدياد نشاط القائد البحرى الكبير خير الدين برباروسا .

وتردد الفرسان في قبول ما عرضه الامبراطور شارل الخامس عليهم وقرروا اخيرا ان يرسلوا بعض الفرسان لزيارة مالطة وقوزو وطرابلس لدراسة هذه النقاط الثلاثة ولكتابة تقرير عن مواردها وخيراتها وحضونها وابراجها واساليبها الدفاعية ومواقعها الاستراتيجية قبل التعهد بقبول الدفاع عنها .

واختار مجلس المنظمة ثمانية من الفرسان للقيام بهذه المهمة . ولم تكن مدة اقامة الفرسان الثمانية في طرابلس طويلة ولكن الوصف الذي كتبوه عن طرابلس كان دقيقا ، وقد جاء فيه وصف مفصل عن طرابلس في آخر العهد الاسباني وقد يكون من الافضل نقل بعض النقاط مما جاء فيه ليلقى لنا بصيصا من النور على حالة طرابلس الحقيقية في هذا العهد .
جاء في هذا القرار :

« طرابلس صافية الاديم وهواؤها صحي وهي غير معرضة للأمراض السارية ، ويبلغ محيط سورها ٣٧٢٨ خطوة ثلثه يطل على البحر والثلث الآخر يشرف على البحر .
وقد هدم من الاسوار مائتا خطوة لتحسين القصر وان الباقي من الاسوار مبنى على الاساليب القديمة ويهدده الخراب .

ويبلغ علو الاسوار قصبتين ونصف قصبة (اى تقريباً) ، اما الخنادق فضيقة وغير عميقة ومع والمباني مهدمة .

وفى طرابلس آبار وصهاريج للمياه وتشرف على الاهداد موقعها الميناء والقصر على وجه الخصوص الظهرة) ومن المتحتم الاعتناء باعادة بناء الاسوار وفقا للاساليب الحديثة ولذلك يجب استجلاب من حجارة وجير وبلاط من بلاد اخرى .

ولم يدخل الفرسان الى القصر بسبب انتشار مرض بل قاسوا محيطه من الخارج فكان الجانب الذى ميدان السراى اليوم يبلغ طوله ١٦٠ خطوة اما الج يشرف على سوق المشير اليوم فيبلغ مائتى خطوة اسوار القصر خمس قصبات اى ١٢ مترا تقريبا ويحيط بالقصر خندق عرضه ٤٤ خطوة وعمقه ويوجد خارج القصر من الجهة الشرقية بئر كما توجد داخل القصر مياهها ملححة .

وجاء فى قرار الفرسان الثمانية :
وقد نخرت قواعد القصر من مياه البحر ، وهو يص

جيد للوالى وحاشيته ورجال الجيش ولكنه فى حاجة ماسة الى اصلاحات كبيرة وترميمات ضرورية وفى القصر بعض المطاحن اليدوية الجيدة .

وتعرض قرار الفرسان الى الحالة المالية فى البلاد وقد جاء فيه :
يتكون دخل طرابلس من ١٠ . / رسومات جمركية على البضائع ويؤخذ دوكلات واحد عن كل رقيق يخرج من المدينة او يدخل اليها . وكان مجموع الدخل الذى قبض فى ثلاث سنوات يتراوح بين سبعة وثمانية آلاف دوكلات .

اما عن ميناء طرابلس فقد جاء فى القرار :

« ومينائها (اى طرابلس) جيد لاسطول صغير ، وتهب عليه الرياح الشمالية الشرقية ولا تقيه من الرياح الغربية الا بعض الجزر الصغيرة »

ولم يغفل الفرسان ذكر العرب الذين اضطرتهم ظروفهم الخاصة الى البقاء داخل اسوار المدينة :

وفى طرابلس ستون عائلة عربية فى حياتهم ٢٥ فرسا يتخذونها لحماية المدينة وهم مخلصون اخلاصا شديدا لصاحب الجلالة . ويتخذ العرب خيولهم للغزو على القرى القريبة ايضا ويقتسمون الغنائم فيما بينهم دون ان يدفعوا للحكومة شيئا .

واخيرا جاء في القرار ان الامبراطور يمد طرابلس بكل ما تحتاج اليه من الاسلحة والدخيرة وانه يحول اليها اثني عشر الف دوكت سنويا لرواتب الجند .

ووجد الفرسان في القصر كثيرا من المدافع .

بهذا عرض الفرسان المبعوثون لتفقد الحالة في طرابلس ما لاحظوه فيها وقد اظهروا بجلاء نقص ضعف المدينة والحسائر التي يلزم التعهد بها لجعلها صالحة للاقامة وهي طبعاً اكثر بكثير من منافعها لهم اذا ما قرروا استلامها من الامبراطور وقبلوا شروطه .

اما مالطة فانها على الرغم من قلة مواردها الطبيعية والزراعية واحتياجها الشديد في حاجياتها الى البلدان الاخرى الا انها اكثر ابتعاداً عن الاعداء وموقعها المحصن وقربها من البلدان المسيحية يجعلها بعيدة عن دائرة مطامح الاتراك ومحاولاتهم لغزوها خصوصاً وان فرسان القديس يوحنا قد فقدوا قوتهم ونقص عددهم وخارت قواهم المادية والمعنوية عند الدفاع عن رودس التي اخرجهم منها السلطان سليمان ، وعلى اى حال فليس لديهم قوة كافية للمحافظة على بلاد مثل طرابلس .
لهذه الاسباب اخذ الفرسان يسوفون للامبراطور رغم الحاجات

شارل الخامس ودعوته اياهم بالاسراع بتوقيع وثيقة التعهد واستلام الاماكن الثلاثة التي وعدهم بها . ولم يسع المنظمة امام هذا الاجاح الشديد من طرف الامبراطور شارل الخامس الا ان ترضخ لمطلب الامبراطور المقدس ، وجاء في المذكرة التي بعث بها الفرسان الى الامبراطور .

ان هذه المنظمة التي وجدت ان الحظ يعاكسها في جميع ما اقدمت عليه ، فانها تقبل الجزيرتين مالطة وقوزو ، اذ انها لم تجد مكانا آخر ملائما تتخذة مركزا لها لتعلن الحرب التي لا هوادة فيها على المسلمين :

وجاء في المذكرة المذكورة ايضا : « وبما ان جلالتكم القيصرية عندما طلب منكم التنازل عن هاتين الجزيرتين طلبتم ان تقبل معهما مدينة طرابلس بكل ما يتبعها ، فاننا قبلنا هذا على الرغم من ضعف قوى المنظمة ورغبة منا في خدمة جلالتكم القيصرية . وفي الوقت نفسه نأمل ان تكونوا لنا سندا وعونا حيثما لا تكفى قوانا في خدمة الله للاحتفاظ بتلك الاماكن وحماية المنظمة نفسها »

وتسلم الامبراطور شارل الخامس هذه الرسالة وهو في بولونيا (BOLOGNA) من اعمال ايطاليا وقد جاء اليها ليتسلم

التاج الامبراطورى من البابا كليمنت السابع . وقبل ان يغادر
الامبراطور ايطاليا قاصدا المانيا وقع على وثيقة تسليم الاماكن
الثلاثة : مالطة ، قوزو وطرابلس لمنظمة فرسان القديس يوحنا ،
وقد جاء فى وثيقة تسليم الاماكن الثلاثة المكتوبة باللغة اللاتينية :
« قد وهبنا القصر والاماكن وجزائرنا فى طرابلس ومالطة
وقوزو الى منظمة فرسان القديس يوحنا لاهياء المنظمة ولاستقرارها
، وهى هبة خالصة عن رضائنا واقتطاعا دائما شريفا حرا ، مقابل عقاب
واحد تسلمه المنظمة فى عيد جميع القديسين (١ نوفمبر) من كل
عام فى يد نائب ملك صقلية .

وجاء فى الوثيقة ان الامبراطور يسمح للفرسان بابقاء الاسلحة
والمدافع الموجودة فى قصر طرابلس وعلى قلاعها لمدة ثلاث
سنوات ، لاستعمالها ضد الاعداء الا اذا راي صاحب الجلالة
القيصرية تمديد الاجل .

ووافق مجلس منظمة الفرسان على الوثيقة القيصريّة فى ٢٥
يوليه من سنة ١٥٣٥ م وجاء وفد منهم الى طرابلس ليستلم
المدينة من واليها فرديناند ألكون (Ferdinando Alarcone)
ولياخذ فى عهده المدافع والدخيرة الموجودة والتي تعهدوا
بردها الى الامبراطور بعد ثلاث سنوات ، ثم لحق هذا الوفد

القسيس قسبارى دى سنقوسا (Fra Gaspare di Sanguessa) وهو اول الولاة على طرابلس من قبل فرسان القديس يوحنا وجاء معه بعض الفرسان والعساكر وشيء من المؤن . بهذا انتهى الحكم الاسباني المباشر على طرابلس الذى دام عشرين سنة . وقد اندفعت اسبانيا لاحتلال طرابلس كما بينا سابقا لغرض السيادة على البحر الابيض المتوسط ولطرد المسلمين من الشمال الافريقى بسبب التيارات الدينية التى كانت يومئذ قوية ملتزمة فى اسبانيا المسيحية ، ولكن حوادث اوربا التى آنذاك واهتمام اسبانيا بمستعمراتها فى العالم الجديد (امريكا) كل هذه العوامل جعلتها تنصرف عن التفكير فى توطيد اقدامها على سواحل افريقيا الشمالية .

وكل ما خلفه الاسبان من آثار فى طرابلس يتلخص فى اعادة بناء قصر المدينة وتقويته ، ولم يستطع الاسبان مدة اقامتهم ان يجتازوا الاسوار ويتصلوا بالقرى القريبة وان يفرضوا سلطانهم عليها بل بقوا طوال هذه المدة محاصرين داخل الاسوار مضطرين الى استجلاب كل حاجياتهم من الخارج .

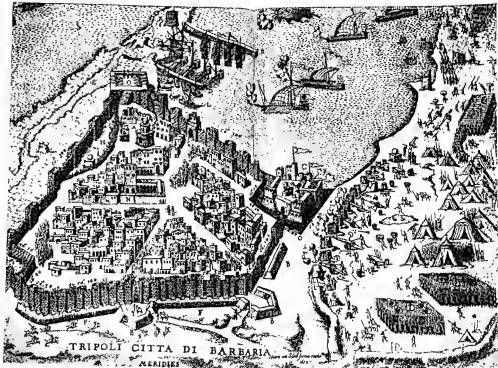
ولولا هذه الاضطرابات التى شغلت بها اسبانيا فى اوربا لفضى على الاسلام والعروبة فى هذه الديار ولما بقى فى الشمال

الافريقي كله مآذن تنادى الى دين الله ولكان مصير طرابلس
واخواتها على هذا الساحل مصير الاندلس وصقلية .

ولا شك ان قبول فرسان القديس يوحنا مسئولية الدفاع
عن طرابلس يعتبر خطوة جريئة منهم امام العالم المسيحي الذي
بات ينتظر ان يرى ذهب طرابلس وخيراتها ويحلّم بالثروة
الكبيرة التي سينالها، ونحن نعلم ان هذه المنظمة كانت عاجزة في
ذلك الوقت حتى عن الدفاع عن مالطة وقوزو اذا ما تعرضت
لغزو غربي او تركي وليس لديها من القوة والمال ما يساعدها
على بسط نفوذها كما كان ينتظر منها بل حتى على الاحتفاظ
بما وهب لها .

لم تكن الطريق امام فرسان القديس يوحنا ممهدة مفروشة
بالازهار، وانما كان امامهم اعداء كثيرون : العرب والأتراك
الذين كانوا لا يفترون عن اصطیاد سفن المسيحيين ويتربصون
بهم ويعرقلون انتقالتهم بين جنوب اوربا وشمال افريقيا ، كما
ان عرب ضواحي طرابلس كانوا يتحينون الفرص لينقضوا على
المدينة وليخلصوا بلادهم من الاعداء .

ولم يكن فرسان القديس يوحنا يعتمدون كثيرا على مساعدة
وامدادات الملوك والامراء المسيحيين لان اوربا آنذاك لم



تكن في حالة استقرار وكان التطاحن والشقاق كبيراً بين
الامراء والملوك .

تقلد الفرسان مسؤولية الدفاع عن طرابلس وليس بأيديهم
مال يساعدهم على بناء وترميم وتحصين القصر والابراج
والقلاع والاسوار او زيادة عدد الجنود والفرسان ، ولم
يتعهد الاسباطور لهم بمال يعطيهم اياه ، بل رفع منهم حتى
ما كان مخصصاً لمدينة طرابلس ، وهذه الاسباب اضطر المعلم
الاعظم ان يرهن ويبيع بعض ممتلكات المنظمة في ايطاليا
ليبدأ بها ادارة دولته الجديدة

ولم تقف مضاعب الفرسان عند هذا الحد بل تجاوزته الى
ما هو اشد ، فقد صارت تعامل من قبل دويلات الامبراطورية
المقدسة كجزء مستقل تخضع صادراتها ووارداتها لنظام
الضرائب الجمركية العامة . فقد فرض نائب الملك في صقلية الضرائب
على كل ما تشتره المنظمة من حبوب وادوات بناء واسلحة
وغير ذلك . وهدد الفرسان بالانسحاب من طرابلس وباخلائها
اذا لم ترفع عنهم الضريبة الجمركية في موانئ ايطاليا .

وتوسط البابا كليمنت السابع لدى الامبراطور شارل
الخامس فاعترف لهم بحق الاشتراء من الموانئ التابعة له دون

ان تكون بضائعهم خاضعة للرسوم الجمركية المفروضة على الصادر والوارد من البضائع .

وعندما استلم الاب سنقويسا (SANGUESSA) ادارة طرابلس عزم على ان يخضع قبائل العرب القريبة مثل جنزور وسوق الجمعة وتاجوراء ، فقام بغزوات صغيرة هنا وهناك وكان الغرض من هذه الغارات هو نشر الخوف والرعب بين العرب وحتى يشعرهم بما لديه من قوة وعتاد حربى وفى الوقت نفسه ليفتح الى المدينة بابا كانت فى اشد الحاجة اليه من مدة طويلة ذلك هو الاتصال بالدواخل ومبادلة السلع والانتفاع بما تنتجه القرى والبساتين من حبوب وفواكه وخضروات وحيوانات. بدأ الاب سنقويسا يناوش عرب الضواحي وجرت بينه وبينهم معارك واستطاع ان يخضع قرية جنزور ويجبرها على دفع الجزية.

الفصل السادس

فرسان القديس يوحنا بين العرب والأتراك

توفي في أوائل فب-راير من سنة ١٥٣١ م مولاي محمد ملك تونس مسموما على يد زوجته لتستخلف من بعده ابنها مولاي الحسن ولتبعد عن الملك اخوته من ابيه . وعندما استقرت قدم مولاي الحسن على الملك واخضع جميع ممتلكات ابيه بعث الى الوالى المسيحى في طرابلس بواسطة جوان الرابطى وهو جندى مسيحى فى خدمة ملك تونس يطلب صداقة منظمة فرسان القديس يوحنا وعقد معاهدة حسن جوار بين البلدين ، وبعث الوالى المسيحى فى طرابلس الى مولاي الحسن يخبره بانه خاطب فى ذلك حكومته . ويرجوه ان لا يبعث بالسلاح الى تاجوراء حتى يتم ابرام معاهدة الصداقة وحسن الجوار بين الدولتين .

ولم ينج من ابناء مولاي محمد سوى مولاي رشيد الذى التجأ عند خير الدين بربروسا ملك الجزائر فى ذلك الوقت هاربا من الموت الذى اصاب اخوته بعد موت ابيه طالبا من خير الدين ان يساعده على استرجاع عرشه الذى سلبه منه اخوه مولاي

الحسن صديق المسيحيين وحليفهم . وتحمس خير الدين ولم يترك فرصة الاستيلاء على تونس واخضاعها ولذلك اركب جنوده السفن وحمل مولاي رشيد معه ونزل على تاجوراء واحتلها بعد ان طرد منها مؤيدي مولاي الحسن ورجاله وابقى في تاجوراء من قبله احد قواده ، وكان يدعى هذا القائد ايضا «خير الدين» ويسلقب «كرمان» و و ابقى مع خير الدين بعض القطعات البحرية واسلحة وجنودا .

لم يكن بتاجوراء ميناء صالح لايواء السفن ولذلك اسرع «كرمان» لاعداد حوض صغير لسفنه وبنى برجاً هناك ليدافع به عن السفن الراسية في هذا الميناء وادرك ان اقامته دون القيام بمثل هذه التحصينات الاولى الضرورية قد تعرضه الى فقدان هذه القواعد الهامة لمحاربة المسيحيين وتكون سفنه ورجاله معرضة للوقوع تحت رحمة فرسان القديس يوحنا المقيمين في طرابلس - واعلن خير الدين على المسيحيين الحرب في البر والبحر واصطاد السفينتين اللتين يملكهما الفرسان في طرابلس بكل ما فيهما من رجال وعتاد ، بهذا ضعف نفوذ الفرسان على القرى الطرابلسية ولم يعد العرب يدفعون لهم ما فرضوه عليهم من جزية وتخلص سكان قبائل جنزور والماية والمنصورة والهنشير

والتجيبين والحشان والعمرس وغيرها من سلطان الفرسان .
وعلم مولاى الحسن بهذه التطورات الفجائية الاخيرة فى
موقف الاراضى الطرابلسية تجاه عرشه وامتداد نفوذ سلطان خير
الدين برباروسا وزوال سلطان الحفصيين ، لذلك جهز جيشا
فيه اخلص جنوده واكثرهم شجاعة وقاد الجيش بنفسه فى اواخر
شهر يناير من سنة ١٥٣٢ م لمحاصرة تاجوراء والقرى الخاضعة
لخير الدين ، وقد تاكد مولاى الحسن من وعد المسيحيين له
بالمساعدة بالمدفعية والعتاد والرجال فى معاهدة الصداقة وحسن
الجوار، واسرع مولاى الحسن الى طرابلس قبل ان يحل فصل
الربيع ويكون فى استطاعة خير الدين برباروسا امداد تاجوراء
بالسفن والرجال .

وكان قد انضم الى جيش خير الدين كرماني ملك تاجوراء
عدد كبير من التونسيين الخارجين عن طاعة مولاى الحسن
والناقمين عليه لقتله لاختوته وتحالفه مع المسيحيين .
وقد وطد هؤلاء انفسهم على القتال حتى الموت خوفا من
ان ينزل بهم عقاب مولاى الحسن الصارم اذا ما تغلب عليهم
ووقعوا فى قبضة يديه .

زحف مولاى الحسن على طرابلس وحاصر جيش خير الدين

فى ثلاث مواقع : فى تاجوراء وعند البرج القائم على الميناء وفى
 زواغة . ثم بعث الى الوالى المسيحى فى طرابلس بواسطة الكبتن
 شيكالا (CAPT. CICALA) الذى يعمل فى الجيش التونسى
 يطلب نجدة ومدافع واسلحة انجازا للوعد ، ولكن لم تكن للوعود
 قيمة لان القائد العسكرى لمنظمة فرسان القديس يوحنا توجس
 خيفة من ان يكون فى الامر خديعة وان يستعمل مولاى
 الحسن هذه الاسلحة ضدهم ، وابتى ان يسلم المدافع والعتاد
 الموعود به الى ملك مسلم ليحارب به المسلمين اخوانه وبني
 عمومته فى صالحهم ولخالص صداقتهم وجبا فى حسن جوارهم .
 وبعث القائد العسكرى لمولاى الحسن يعتذر ويقول ان ما
 لديه من الاسلحة والمدافع والدخيرة هو فى حدود ما يحتاج
 اليه القصر للدفاع عنه ، وليس لديه زيادة عن الضرورى ،
 وانه ينتظر وصول الاشياء الموعود بها من مالطة بين يوم وآخر
 وعاد فكرر وعده بان يرسل الى مالطة ويستعجل طلب
 النجدة الى مولاى الحسن . وارسل مولاى الحسن سفيره الى
 مالطة للاتصال بالمعلم الاعظم لمنظمة فرسان القديس يوحنا
 وللتفاهم حول مده بالسلح والعتاد ، كما بعث مولاى الحسن
 قائده المسيحى الكبتن شيكالا الى نائب الملك فى صقلية ليعين

له خطر ابقاء خير الدين فى تاجوراء وضرورة التظافر معه على طرده من هذه الاراضى منذرا اياه بما سيلحق صقلية من اذى اذا ما انتصر خير الدين ببارباروسا عليه ووضع يده على تونس. درس المعلم الاعظم طلبات مولاى الحسن وخاف من انقلاب عليه اذا ما منع عنه السلاح الذى وعده به فى السابق ، ولم يجد بدا من امداده ببعض السفن واقلعت هذه السفن من مالطة بقيادة الاب بوتيجيلا (BOTTIGELLA) ومعه ستون فارسا مسيحيا وبعض المشاة ومدافع وذخيرة .

واستلم خير الدين كرمان ملك تاجوراء رجلا وعتادا من برباروسا وانضم اليه كثير من البحارة الاتراك وبلغ عدد اسطوله فى تاجوراء خمسة عشر قطعة كبيرة .

بهذا استطاع خير الدين ان يدافع عن تاجوراء ويمنع الاعداء من دخولها رغم الغارات المتكررة التى كان يشنها عليه مولاى الحسن والقائد المسيحى بوتيجيلا .

وشعر المسيحيون ان مولاى الحسن صادق فى عزمه مخلص فى نياته نحوهم فكتب المعلم الاعظم الى نائب الملك فى صقلية يرجوه ان يمدّه بسفن وزجال ومدافع لاحتلال تاجوراء والقضاء على مملكة خير الدين قبل ان يستفحل امره وتتقوى شوكته

ويطمح من بعد في مهاجمة طرابلس ومالطة وصقلية ، واكد الى نائب الملك الاسراع بهذه الامدادات حتى يتخذ العدو لطرد العدو ويستخدم المسلم لمقاتلة المسلم . ووعد نائب الملك في صقلية العلم الاعظم لمنظمة الفرسان بان ينجز طلباته ، ولكن لم تصل هذه الامدادات على الرغم من الوعود والالاحاح .

وخرج خير الدين باربا روسا والحصار قائم على تاجوراء في اسطول كبير ومعه مولاى رشيد بن مولاى محمد الحفصى ونزل باسفاقس من اعمال تونس واحتلها وكان ذلك في شهر ابريل .

وعندما سمع مولاى الحسن بحملة بارباروسا هذه رفع الحصار عن تاجوراء وذهب الى اسفاقس الى مقابلة برباروسا هناك ، وباءت هذه الحملة بالوبال والخسران على مولاى الحسن وعلى المسيحيين ، واشتد على اثر هذه الهزيمة خوف النصارى من تقدم خير الدين كرمان ملك تاجوراء الى طرابلس واحتلالها بعد ان بقى جيشهم وحده فى الميدان وقد فقد الكثير فى الهجوم على تاجوراء ، ولذلك اخذت تنتاب المسيحيين هى بناء الاستحكامات والابراج والقصر ، وبدأت من جديد المحاولات للحصول على المال اللازم لذلك ، المال الذى ليس لديهم منه شيء - وفى ربيع سنة ١٥٣٤ دعا السلطان الى الاستانة خير الدين

برباروسا وولاه قيادة الاسطول العثماني كله ، فزاد خوف
الفرسان ازديادا كبيراً وخرج خير الدين بالاسطول العثماني
من الدردانيل واتجه نحو سواحل ايطاليا الجنوبية فاسر منها
الرجال والنساء واحرق القرى والمدن ، وهذه الاساليب التي
نسميها بلغة اليوم « الاساليب الوحشية » كانت في
جدول اعمال كل قائد حربى يريد ان يجعل من اسمه اداة للتخويف
والارهاب ، وكانت وسيلة من وسائل التغلب على العدو
وانزال الحسائره ، ولم تكن هذه الاعمال من طرف المسلمين فقط
بل كانت من طرف المسلمين تارة ومن طرف المسيحيين تارة اخرى .
اتجه خير الدين برباروسا بعد نزوله على صقلية ، الى
تونس واحتلها وفر مولاي الحسن منها .

وقسم برباروسا جيشه الى قسمين للاستيلاء الكامل على تونس
ولاخضاع كل ممتلكات مولاي الحسن ووضع بارباروسا
الجيش المكلف بالزحف على الجهات الواقعة شرق تونس تحت
قيادة حسن آغا ، واتجه هذا نحو طرابلس وتاجوراء ، وخاف
فرسان القديس يوحنا في طرابلس من تقدم حسن آغا
وتغلبه على مقاومة حاميته

ولم يدم استيلاء برباروسا طويلا على تونس بل تراجع بعد

ان انتصر عليه جيش شارل الخامس فى يولييه سنة
١٥٣٥ م ورجع مولاي الحسن الى ملكه وابقى الامبراطور
فى خلق الوادى الف جندى اسبانى واشترط على الملك ان يكون
مساعدًا وحليفًا للفرسان فى طرابلس وان يقدم اليهم كل
ما يحتاجون اليه من رجال وعتاد اذا ما طلبوه ذلك .

كان من عادة المعلم الاعظم لمنظمة فرسان القديس يوحنا
ارسال وال من طرفه لادارة شئون طرابلس ، يختار هذا الوالى
من بين الذين لهم اقدمية العمل فى الجيش واسبقية الالتحاق بالمنظمة
وكان يعين الى جانب الوالى قائد عسكري مهمته الجيش والدفاع
وملحق مالى لادارة الدخل والصرف والاشراف على الجمارك
وغير ذلك .

وكان يربط فى القصر عادة وفى الاحوال العادية خمسون
فارسا ومائتا جندى من بينهم اثنا عشر من رجال المدفعية ،
ويساعد المسيحيين خمسون عربيا بين فرسان ومشاة .

هذا وتعطى لكل وال تعليمات يعمل بمقتضاها وتتلخص
هذه فى ما يلى :

(١) - عدم تسليف اى قطعة من قطع المدفعية او اخراجها
من القصر .

(٢) - اعطاء مرتبات الجنود كل اربعة اشهر حتى لا تحدث قلاقل بين الجنود

(٣) - عدم السماح لاي موري (عربي مسلم) بالدخول الى القصر قبل ان ينزع سلاحه وينزل من فرسه .

(٤) - عدم السماح باقامة الاسواق العامة الا خارج المدينة ووراء الحنادق خوفا من ان يتحين العرب فرصة اقامة الاسواق العامة داخل المدينة ومحاولة الهجوم عليها وعلى قصرها والثورة على فرسان القديس يوحنا .

جاءت سنة ١٥٣٦ م تنذر فرسان القديس يوحنا في طرابلس بويلات كبيرة وحروب طاحنة ، وليس لدى الفرسان من القوة ما تمكنهم من رد جيش مسلح قوى وليست الاسوار والقلاع بقادرة على مقاومة هجوم مسلح منظم ، وليس بين يدي الوالى من الفرسان والمشاة والمدافع ما يستطيع به ان يهاجم تاجوراء التى غدت شوكة فى العين وقد كثر فيها رجال خير الدين واعوانه من عرب واتراك ومن الذين فروا من تونس والذين دعاهم نفير الحرب من دواخل القطر الى الحرب المقدسة التى توشك ان تعملن . جاء خيبر السديين كرمسان الى الى طرابلس بعد المعارك التى جرت فى تونس لرفع نفوذ شارل

الخامس منها ولقائمه مولاى الحسن حليفه وصديقه الامين .
وفى يد خير الدين كرمان توصية من برباروسا الى سكان تاجوراء
وضواحي طرابلس وقبائلها يامرهم فيها بطاعته ومساعدته .
كان خير الدين كرمان رجلا عظيما كبير القلب شجاعا
طموحا فى بسط سلطته ونفوذه وتدعيم ملكه وسلطانه ، واكتسب
اثناء اقامته فى تاجوراء كثيرا من الاصدقاء والاتباع وانضمت
اليه القبائل الطرابلسية ودفعت اليه خراج اراضيها واشجارها
وحيواناتها وتجارتها .

وضاق الحناق على الفرسان فى طرابلس اثر مجيء خير الدين
الى تاجوراء . وصاروا محاصرين محاصرة شديدة لا يستطيعون
حتى فتح ابواب المدينة عليهم لاشتراء ما يلزمهم من مؤن
اما قوات خير الدين فكانت منتشرة فى جميع ضواحي طرابلس وقد بنى
خير الدين قلعة على بعد ميل واحد من اسوار المدينة وكانت هذه
القلعة تعرف بقلعة القائد (١) ونصب عليها المدافع وكان رصاصها
يصل قريبا من الاسوار ويرابط فى القلعة عادة ستون جنديا من
الأتراك وبعض الفرسان ، وقد اتخذت هذه القلعة لغرض
المحاصرة الاقتصادية والتضييق على الفرسان وحتى لا تترك

(١) كانت تقع هذه القلعة فى الجهة المسماة اليوم الظهرة

لهم فرصة للمتاجرة واشتراء ما يحتاجون اليه من المنشئة والضواحي الاخرى .

وكانت هذه هي الخطوة الاولى تتمهيد الطريق امام جنوده وفرسانه لاحتلال طرابلس ، اما الخطوة الثانية التي قام بها خير الدين هي التقدم للاحتلال الفعلي .

دعا هذا القائد التركي جنوده ورجاله واعوانه من تاجوراء والماية وجنزور للانقضاض على طرابلس ، وجاءه المتطوعون العرب افواجا افواجا ، ورابط هذا الجيش عند قلعة القائد (بالظهرة) وتقدم الجيش نحو الاسوار ومعه حملة السلالم واختلطت اصوات الطبول باصوات المدافع والبنادق وارتفعت اصوات الجيوش والخيول وزادت قعقة السلاح وضربات المدفعية ووضعت السلالم على الاسوار .
وحسى وطيس الحرب

جثت ترسى من فوق الاسوار ، رؤوس تنطائر ، صياح ذعر تكبير وتهليل .

وقد خارت قوى فرسان القديس يوحنا امام هذا الهجوم العنيف المنظم وظنوا ان الساعة قد حانت وليس امامهم الا الموت او الاسر - وكادوا يرفعون الاعلام البيضاء اعلانا

بالاستسلامإلا ان جيوش خير الدين بدأت تترك مواقعها وترتد الى السوراء تاركة وراءها السلاح وجثث الموتى بسبب انتشار خبر بين الجنود مفاده ان خيرالدين قد مات وهكذا ارتدت الجيوش الى قلعة القائد بالظهرة وتاجوراء .
واراد الله ان لا تكون هذه الحملة هي القاضية

كان لهذه الحملة رد فعل من طرف المسيحيين الذين عزموا على الانتقام واشعال نار الحرب من جديد على جيش خير الدين المتراجع ، وتسلم الوالى فى طرابلس اموالا ورجالا وعتادا من مالطة ، وبلغ عدد جيشه ٧٠٠ رجل الا ان جيش خير الدين كان يكثره عددا ، ولذلك طلب الوالى المسيحى مساعدة من عرب المنشية حلفائه القدامى فجاؤوه افواجا رجالا وركبانا وملأوا الساحات والبيادين ، جاءوا ليحاربوا اخوانهم فى الدين والجنس مقابل اجور صغيرة يتقاضونها .

وخاف الوالى المسيحى من انقلابهم عليه وانضمامهم الى صفوف خير الدين بعد نقدهم وتسليحهم ، فطلب منهم رهائن ، وقدموا اليه ابناءهم وآباءهم ضمانا لاختلاصهم له وعربونا على اشتراكهم معه .

وتسلم هؤلاء العرب راتب خمسة ايام ووعدهم الوالى بان يدفع

اليهم مثله كلما انقضت خمسة ايام اخرى الى ان تنتهى
المعارك ويقضى على جيش تاجوراء .
ولكن التاريخ لا يبين لنا كيف ولماذا انضم هؤلاء
العرب -عرب المنشية الى صفوف فرسان القديس يوحنا ،
وقد نجد من طرفنا لهم مبررا لو ان الحرب بين جيش خير
الدين وفرسان القديس يوحنا كانت حروب مبادىء
ومثل عليا لا جروبا تتسم بالطابع الصليبي المحض وترى
الى القضاء على دين محمد فى هذه البلاد ، ولست بكلامى هذا
متعصبا لدين معين ضد آخر فلكل الاديان حرمتها وقديستها ما
دامت تدعو لخير البشرية ولا تتخذ أداة للقتل والتشريد ونشر
البغضاء وقد يكون الدافع لعرب المنشية فى اشتراكهم مع فرسان
القديس يوحنا ضد اخوانهم العرب ، هو دافع الفقر والحاجة .
ولا شك ان هؤلاء الساكنين بوجودهم قرب الاسوار ، فقدوا
الشيء الكثير من خيراتهم وضاعت بساكنهم واشجارها
واستحال عليهم التعامل مع المدينة وتصريف منتوجاتهم فيها
بسبب القلاقل والفتن والمجور والرد والتقدم والتقهقر طوال
هذه المدة التى بقى فيها المسيحيون داخل اسوار المدينة .
وقد نقول ان الحاجة والحاجة ام المصائب ، هى التى دفعتهم

لمحاربة اخوانهم وذويهم . الا اننا نجد اشارة اخرى فى التاريخ
تشعرنا بان سكان المنشية عفا الله عنهم لم يكونوا فى حاجة
الى لباس وكساء كما قد يتوقع ، فقد جاء فى مذكرات الاب
بوسيو (Bosio) انهم دخلوا الى الاسواق
واشترى اقلانس حمراء تونسية (طواقى) وبعض آلات الطرب بعد
ان دفعت لهم مرتبات خمسة ايام .

ولا شك ان الجائع العريان لا يفكر فى اشتراء آلات الطرب
ولا «الطواقى» الحمراء قبل ان يفكر فى اشتراء مؤونة بيته
وكساء عائلته .

بلغ خبر تحالف عرب المنشية مع المسيحيين فى طرابلس
الى خير الدين كرمان فأخذ يستعد لمقابله العدو .

وانتظم جيش الفرسان المكون من العرب ورجال القديس
يوحنا واتجه نحو قلعة القائد بالظهرة ، وتقدم ايضا جيش
خير الدين ورابط فى قبيلة ابي دبوس التى تبعد عن المدينة
بنحو ثلاثة اميال .

اما فى القلعة فكان يربط بها ستون جنديا من الاتراك
وامدهم القائد التركى بعشرين آخرين .

وتقدم عرب المنشية نحو القلعة وصوبوا نحوها فوهات ثلاث سدافع ، ولم

يتقدم خير الدين لابعاد خطر المسيحيين عنهم ، ولم يتحرك بالجيش من قبيلة ابي دبوس. وشعر المحاصرون بالقلعة بمداهمة فرسان القديس يوحنا وعرفوا انه ليس في استطاعة خير الدين ان يرفع عنهم الحصار ، ولذلك دفعوا الاعلام البيضاء ، بعد ان شعروا بان القلعة لم تعد تحميهم من ضربات المدافع ، وعرضوا طلب الامان شرطا لتسليمهم ولكن الفرسان رفضوا شرط تحريرهم من الاسر بعد التسليم واندروهم بالقتل بحد السيف اذا لم يستسلموا ، ولهذا عزم المحاصرون على الموت في ميدان الشرف وقرروا الدفاع حتى اخر قطرة من دماءهم .

ثم تقدم المسيحيون نحو القلعة ووضعوا تحتها المفرقات فنسفت نسفا وتناثرت اشلاء من فيها ومن نجا من الموت قتل قتلا فظيعا بحد السيف .

وعلى اثر هذا انسحب خير الدين من قبيلة ابي دبوس الى تاجوراء وتقدم العرب المرتزقة الى هذه القبيلة ونهبوها وسبوها واضرموا فيها النار ورجعوا بالغنائم الى طرابلس فنقدهم الوالى جوائز وسلمهم الرهائن .

ولم يظهر في تاريخ طرابلس اسم خير الدين بعد هذه المعركة ، ويعتقد بعض المؤرخين انه اصيب في هذه

المعركة ومات ويعتقد آخرون انه اشترك في حروب دالماسيا
(البلقان) ومات هناك .

وجاء بدلا من خير الدين الى تاجوراء سنة ١٥٣٩ ، مراد
آغا ولكن لم يظهر اسم هذا القائد في تاريخ طرابلس الا في
سنة ١٥٤٣ م.

الفصل السابع

الغزو الأتراكى

ذكر ابن غلبون فى كتابه « التذكار » ان سبب مجيء مراد آغا الى هذه الديار كان بطلب من مشايخ ورجالات تاجوراء ، وقال انهم سافروا الى القسطنطينية وطلبوا نجدة من السلطان لطردهم من بلادهم ، ، وقال ابن غلبون ايضا ان عرب تاجوراء لا يعرفون اللغة التركية وان مراد آغا قد ترجم بينهم وبين السلطان . وان ما رواه ابن غلبون فى كتابه يحتاج الى شىء من التدقيق قبل الاخذ بصحته ويظهر لنا ان هذا المؤرخ المصرائى الطرابلسى لم يكن مطلعاً على هذا الدور من تاريخ طرابلس اطلاعاً كبيراً وهذا ما يجعلنا نشك فى صحة ما رواه .

وانما لا نعتقد ان عرب تاجوراء كانوا لا يفهمون اللغة التركية ، ذلك لان الاتراك نزلوا بهذه الارض قبل مجيء

مراد آغا باكثر من ربع قرن وان الجالية التركية بتاجوراء
 في ايام خير الدين كرماني كانت قوية وكبيرة ، ولم يكن هناك
 ما يمنع المصاهرة بين الاتراك والعرب فتزوج الضباط
 والجنود الاتراك بنساء عرييات ، وهذا ولا شك قد نشر
 اللغة التركية في تاجوراء ، اضافة الى ذلك ان
 لغة رجال السلطات سهلة الانتشار والتعلم و ليست
 لدينا معلومات واسعة واخبار يقينية عن حياة
 مراد آغا وكل ما يمكننا ان نؤكد هوانه ولد في راقوسا
 (RAGUSA) بايطاليا وانه كان خصيا .

وقد اكد هذا نيكولا دي نيكولي سكرتير السفير الفرنسي لدى البلاط
 العثماني ، والذي قابل مراد آغا اثناء حصاره لطرابلس وساله عن اصله .
 ويقول صاحب كتاب : (NAVIGATIONI ET VIAGGI)
 انه علم من مصدر صحيح ان مراد آغا وليد راقوسا سباه
 القراصنة الاتراك في احدى حملاتهم على شواطئ دالماسيا ، ثم
 بيع في الاسنانة بستين ليرة لاحد النخاسين وتولى هذا النخاس
 تعليمه وتربيته وسماه مرادا وحبب اليه الاسلام وختنه
 وكان مراد جميل الخلقة حسن الطلعة وسيما جذابا ذكيا
 فاهداه الى سليمة محظية السلطان سليم الاول .

واحبت سليمة مرادا واسبغت عليه عطفها وحنانها ولكن قوانين السراى لا تسمح ببقاء الذكور مع الحريم ولذلك اجريت لمراد عملية الخصى حتى تتمتع سيدته سليمة بمجالسته فى اكثر الاوقات ، وكانت تكلفه من آن لان يحمل ما تصنعه يديها من مأكلى وحلوى الى السلطان سليم لتلتف اليه نظره . واحبه السلطان ايضا وشغف به ولاحظ ذكاه ونباهته .

الا ان هذا الحب البرىء والعطف والحنان بين سليمة ومراد قد تحول الى حب وهيام ، الى حب لا طائل من ورائه وكثيرا ما احترقت سليمة حبا بين ذراعى مراد الفاترتين وهى تعلم أن حبها لا يمكن ان يتعدى الحب الافلاطونى . ومات السلطان سليم الاول وانتقلت سليمة مع من انتقل من المحظيات الى سراى آخر ومعها ذهبها وجواهرها ولايتها وماتت سليمة ايضا واورثت مرادا معظم مخلفاتها الثمينة واكتسب بعدها حريته الشخصية .

سثم مراد حياة السراى وخدمة الملوك والمحظيات ، وقرر دخول الجيش ، فالتحق بابراهيم باشا فى حملته على بلاد فارس ، واشتهر مراد فى هذه المعارك وذاع صيته بين

القواد الاتراك ومنح لقب آغا ، ثم التحق بخير الدين بارباروسا الذى اسند اليه قيادة سفينة كبيرة .

وانسنا لانؤكيد صحة هذه الاخبار لاننا لا نجد مصادر اخرى تثبتها لنا او تلقى بصيصا من النور على حياة هذه الشخصية الفذة فى تاريخ طرابلس ، ولكننا نجد ان مرادا انضم الى بارباروسا سنة ١٥٣٨م وانه كان ساعده الايمن ، وهو الذى بعثه الى تاجوراء ليستأنف ما بدأه خير الدين كرمان ويطراس الغزوات على طرابلس .

ومن الجدير بالذكر ان برباروسا كان يثق ثقة عمياء فى مراد آغا ويعتمد عليه اعتمادا كبيرا فى ادارة الحرب فى افريقيا والبحر الابيض المتوسط .

وقد امدّه وهو فى تاجوراء بالسفن والرجال والعتاد الحربى . ولم يخل زمن مراد آغا فى بساىء امره ، من مناوشات واستطلاعات وغزوات صغيرة على المسيحيين فى البر والبحر الغرض منها اظهار وجوده وجعل اسمه مقرونا بالاعمال الحربية حتى لا يجد الاعداء فرصة واسعة للاستجماع والتكتل .

وجاءت سنة ١٥٤٥ لاتنذر الفرسان فى طرابلس بسوء لان

السلطان سليمان عقد مع دويلات الامبراطورية المقدسة هدنة
وعلى الرغم من هذا فان المسيحيين في طرابلس وان كانوا
لا يخافون بعد هذه الهدنة هجوما كبيرا من قبل الاسطول
والجيش التركى الا ان المعارك لم تنوقف في هذه السنة وان
اسن الفرسان في طرابلس الاتراك الا انهم لم يأمنوا
شر العرب الذين باتوا ينتظرون وينتظرون ، ينتظرون الرجوع
الى بيوتهم واوكارهم وقد صاروا مشردين تائهين في كل نواحي القطر.
كان عند الوالى المسيحى دهائن من قبائل الماية الواقعة
غرب قرية جنزور والى تبعد عن طرابلس بثلاثين كيلومترا تقريبا
وخضعت الماية قبل هذا التاريخ لفرسان القديس يوحنا
ودفع سكانها الجزية لهم كما كانت تدفع آنثذ كل من جنزور
والمنشية والرابطة (١) وصبراتة وفر دهائن الماية الى قبائلهم
واختفوا عند اقاربهم وذويهم

خاف الوالى من انتقاض سكان الماية عليه فبعث اليهم يطلب

(١) الظاهر ان الرابطة هى المسماة «الزاوية» اليوم التى تقع
غرب طرابلس والى تبعد عنها بثلاث واربعين كيلومترا تقريبا ، اما
اسم الزاوية فلم يات الا بعد تاسيس زواية الالبشات الشهيرة اليوم

ان يسلموه رهائن اخرى ، ولم يكتف سكان الماية برفض هذا الطلب بل قبضوا على الرسل وباعوهم اسارى للاتسراك ورفعوا عصا الطاعة ، وكانوا قد اتصلوا قبل هذا بمрад آغا في تاجوراء واصلوا تحالفهم معه .

وقد كان سكان المنطقة الغربية عادة متحالفين مع منظمة فرسان القديس يوحنا وخاضعين لنفوذهم ويؤدون اليهم الجزية ، لا حبا فيهم او تقربا منهم وانما لوقوع بلادهم في طريق الجيوش التونسية الذاهبة الى طرابلس والراجعة منها وهم لا يخافون فرسان مالطة بقدر ما يخافون جيش مولاي الحسن حليف الامبراطور المقدس .

اما المنطقة الشرقية فكانت مستقلة احيانا خاضعة لشيوخها وروسائها ومتحالفة مع مراد آغا مرة اخرى يمدونه بالمال والرجال لاستخلاص ام الوطن من ايدي الاجنبى .

وخاف الوالى المسيحى في طرابلس استفحال امر هذه القبائل وانتفاضها جميعا عليه خصوصا بعد ضعف نفوذ مولاي الحسن ملك تونس ولذلك وضع الخطط للانتقام من القبائل المنتفضة حتى يرتدع غيرها وتكون درسا لمن تسول له نفسه بعد ذلك بالامتناع عن دفع الجزية

وبدأ أولا بقبائل الماية لبيعهم لرسله الى الاتراك وامتناعهم
عن دفع الجزية .

ركب الجنود والفرسان السفن وتحرك هذا الاسطول
الصغير المكون من ثمانى قطعات بحرية من ميناء طرابلس فى
آخر يولية سنة ١٥٤٥ وقد اختار الوالى اكثر فرسانه شجاعة
وتدربا على اعمال القتال .

اما الجيش البرى فخرج تحت قيادة شيخ المنصورة (قبيلة
من قبائل سوق الجمعة) وكان متحالفا مع المسيحيين ومعه مائتان
من الفرسان العرب .

كان الوقت ليلا .

ونزل العساكر والفرسان من السفن ووصلت المشاة
وكان الزحف فى سكون الليل وهدوئه ، دون ما جلبة او
ضوضاء تحت ستار الظلام لياخذوا عرب قبيلة الماية على حين
غفلة وليضربوا على اياديهم جميعا .

نزل الجند من السفن على بعد ثلاثة اميال تقريبا غربى جنزور
وكان عددهم ثمانى مائة من المشاة و ١١٢ من الفرسان المسيحيين
وقبل ان يتم تطويق المدينة ومحاصرتها دق حامل الطبل
دقات عالية تجاوبها ظلام الليل وسكونه ، وايقظت تلك

الدقات عرب القبيلة النائمين في دعة وسكون تداعب أجفانهم
سنة حلوة بعد تعب النهار . وقام عرب الماية مفزعين بدقات
الطبل في ظلمات الليل وخرجوا من مساكنهم وخيامهم
لينظروا ما حدث .

ولم ينتظر سكان القبيلة ما تآلى به الاقدار بل اخذوا
طريق البادية ولاذوا بالفرار بعد ان عرفوا ان امامهم جيشا
لا يقدر على رده وعدوا قويا لا تعادله قوتهم .

ولم يبق في القرية الصغيرة الا العجزة والشيخ والاطفال
الذين خانتهم قواهم عن اللحاق بذويهم في جنح الليل
ونزل الفرسان المهاجمون تحت قيادة شيخ المنصورة
على الماية المسكنة نهبا وسلبا وتخريبا وتاسيرا .

واسر في هذه الليلة من سكان المائة اربع مئة وخمس وعشرون
شخصا . وقد جرى بهم الى مدينة طرابلس مكبلين في الاغلال
ثم قسمت هذه الغنائم على رجال الجيش بعد ان اخذ الوالى
ثمن الغنيمة وهو نصيب الحكومة .

وكان لهذه الحملة اثر كبير في خضوع قبيلة الماية والقبائل الاخرى
القريبة منها والذين خافوا ان ينزل بهم مثل هذا الانتقام .
وبعث بعد ذلك سكان الماية الى الوالى المسيحي في طرابلس

بالهدايا والرهائن والجزية والنقود لاقتداء ابنائهم وذويهم .
وبكوا موتاهم ليالى واياما وشهدت بلادهم مجزرة بشرية فظيعة :
اجسام ملقاة على الارض مقطعة اربا اربا وبطون مبقورة
ونساء ممثلى بهن اشد تمثيل ، واشجار مقطوعة محروقة
ومغروسات مداسة ويوت مهدمة فارغة .

رجع سكان الماية وقد وجدوا قريتهم الجميلة الخضراء
قفراء ، وقد نهبت جميع ارزاقهم واستعتهم .

كان الوالى المسيحى سنة ١٥٤٦ الاب جوان لا فاليت
(LA VALLETTE) وهو مؤسس فاليتا عاصمة مالطة
الحالية . وقد وقع هذا القسيس اسيرا عند العرب فى طرابلس ثم
اطلق سراحه .

وقد اقترح لافاليت وهو وال على طرابلس على مجلس منظمة
فرسان القديس يوحنا ان ينقل مركز المنظمة من مالطة الى
طرابلس والاستقرار نهائيا فى هذه الديار .

وكان من بين رجال المنظمة من عاش فى رودس الجميلة وخضر
انهزام المنظمة فيها ومغادرتها ولا يزال يذكر ايامه الحلوة
الجميلة هناك ويذكر جمال الشرق وسحره وفتنه ، وهما
هو انذاك فى مالطة الصخرة الغبراء الجافة ، يهيم على وجهه

فيها وقد ضاق به المقام .

ليس في مالطة ميدان واسع للتمرين على الحرب والقتال لصعوبة طبيعتها ووعورة اراضيها ، وليس أمام الفرسان من اسل وهم في مالطة في التوسع وبسط النفوذ بل ليس هناك أمامهم من طريق ليتخلصوا من مضايقات ومعاكسات نائب الملك في صقلية وبقائهم تحت رحمة للحصول على حاجياتهم من الحبوب واللحوم والخضروات والفواكه .

نعم ، ان الانتقال الى طرابلس قد يريحهم من كل هذه المتاعب ففي طرابلس قرى وبساتين وآبار عذبة المياه ونخيل باسقة وزياتين وخضروات وفواكه رخيصة ، كما ان بطرابلس ميادين واسعة وأراضي شاسعة ، تصلح لتمرين فيها الجنود والفرسان على الرماية والضرب والكر والفر .

في طرابلس كل هذا ولكن دونها شوك القتاد وفي ساحاتها الموت رابض وفي بساتينها رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه .
كان مجلس منظمة الفرسان يعرف ان العرب لن يتركوا لهم مجالا للاستيطان والاقامة في طرابلس وكانوا يعرفون ايضا ان جيش السلطان سليمان لابد ان يلاحقهم في طرابلس بعد ان طردهم من رودس ، وليس لدى الفرسان جيش يرى يعتمد

عليه في الوقوف امام الجيش التركى ، اذا ما قدم الى طرابلس
وبالنظر الى هذه الحثيات لم يوافق المجلس على اقتراح الوالى
المسيحى الاب جوان لا فاليت (La Vallette) بل تقرر
ارسال قسم من رجال المنظمة فى كل سنة حتى يتم انتقال الجيش
ورجال المنظمة الى طرابلس اوتوماتيكيا ،

وعلى اثر هذا انتابت الفرسان الحمى القديمة حى التحصين
والبناء والاستجداء من الملوك والامراء المسيحيين لمساعدتهم
على تاليف حامية قوية وجيش كبير لطرده مراد آغا من تاجوراء
وفى اوائل يولية من سنة ١٥٤٦ م مات خير الدين
بارباروسا اميرال الاسطول التركى العظيم ، وقد جاء فى رسالة
للسفير البندقى لدى البلاط العثمانى ما يأتى : مات برباروسا
هذه الليلة (اى ٤ يولية ١٥٤٦) بعد الساعة الثالثة ،
وقد خلف للسلطان ثمانمائة اسير واورث الوزير الاكبر رستم
باشا مأتى اسير وعشرة آلاف ليرة ذهبية ، وعشق قبل موته جميع
الاسرى الذين تقل اعمارهم عن خمسة عشر سنة ، كما اوصى
خير الدين بارباروسا ان يبنى جامع باسمه بمبلغ ثلاثين الف
ليرة ذهبية واورث مصطفى ابن اخيه وصهره عشرة آلاف ليرة .
توفى خير الدين بارباروسا ولم تعدم تركيا بعده من يقود

سفنها البحرية والويتها الى طريق النصر ومن يحفظ لها
كرامتها في البحر الابيض المتوسط ، فقد ظهر طرغود في هذا
الحوض يظهر كل يوم صنوفا من المقدرة الحربية والبسالة
النادرة ويكتب صفحات خالدة له في تاريخ البحرية .

ولد طرغود من ابوين فقيرين في قرية صغيرة من اناضوليا
وكان عصاميا بى مجده يده ، وقد اندفع في شبابه الى
حياة البحر بدافع حب المغامرات ، اشتغل طرغود اولا
ملاحا بسيطا على المجاديف ثم مدفعا ، واشتهر في اعماله
كلها وظهر تفوقا ومقدرة ، ثم ابتدا حياته القرمزية في
البحار الشرقية من البحر الابيض المتوسط باعثا الرعب في سفن
البندقية في بحر الارخبيل ، وارتفع بشجاعته الى مراتب
القواد النادرين وعلم به خير الدين برباروسا قبل موته
فضمه اليه ومن ذلك الوقت صار طرغود الساعد الايمن لخير الدين .
كان طرغود يهاجم سواحل ايطاليا وكورسيكا وسردينيا
اذا لم يجد في البحر ما يهاجم وما يأسر وما يغنم ولا يرجع
الى قواعده الا بعد ان تكون سفنه مثقلة بالاسرى والغنائم .

وسقط طرغود في احدى غزواته على جزيرة كورسيكا في
ايدى جانيتينو دوريا (Giannettino Doria) حفيد اندريا

دوريا اميرال اسطول شارل الخامس .

كان هذا حول سنة ١٥٤٠

وسيق طرغود مكبلا امام دوريا الاميرال الصغير فوق
سفينة القيادة وكان دوريا لم يبلغ الرابعة والعشرين من عمره
واستصغر طرغود هذا القائد وغضب وحنق على الاقدار التي
رمت به في قبضة هذا الفتى الامرد مكبل الرجلين بالحديد .

ولاحظ دوريا استخفاف طرغود به فامر بضربه بالسياط
فضرب ضربا مبرحا واهينت كرامته وربط بالسوارى ، وبقي
طرغود في الاسر اربع سنوات مربوطا في مجاديف اسطول
اندريا دوريا

وكانت حكومة الاستانة تلح على شارل الخامس في اطلاق
سراح طرغود وكان السلطان نفسه والوزير الاكبر مهتمين
اهتماما بالغاً بامر تخليص طرغود من الاسر .

وجاء الاسطول التركى فى مئة سفينة كبيرة امام سواحل
ليقوريا (ايطاليا) ليجبر حكومة جنوة على تسليم طرغود
مهددا اياها بالضرب وذلك مينائها ومهاجة سفنها اذا ما
امتنعت عن تسليمه .

ولم يكن امام حكومة جنوة الا ان تطلق سراح طرغود

خوفا من استفحال الامر ونزول نقمة العثمانيين . ورجع امير البحر الى سفنه واسطوله ، ولم يزد الا اسر والضميم الذى لاقاه الا اصرارا على المضى فى عمله دون هوادة او خوف فقد نزل طرغود ثانية الى البحر وقلبه مفعم بالايمان الصحيح الصادق فى تخلص البلدان الاسلامية من قسوة الدول المسيحية واستطاع طرغود ان يؤلف اسطولا قوامه ١٤ سفينة غزا بها سواحل نابولى ، ثم طرد الاسبان من سوسة ، والمنستير وسفاقس (من اعمال تونس) واحتلها وكان يسعى الى احتلال المهديّة ليجعل منها قاعدة لاعماله البحرية .

فخرج فى فبراير سنة ١٥٥٠ فى ست وثلاثين سفينة واتجه بها نحو المهديّة واحتلها دون ما صعوبة بمساعدة سكانها العرب وارسل شارل الخامس قائده البحرى الكبير اندريا دوريا فى ثلاث واربعين سفينة لمطاردة طرغود وكسر شوكته واضعاف قوته وكان طرغود يقضى الشتاء فى جزيرة جربة .

وتظاهروا المسيحيون على طرغود فجاء جوانى دى فيقا نائب ملك صقلية الى المهديّة فى ٢٦ يونية ١٥٥٠ وضرب عليها الحصار فخرج طرغود منها الى جربة واستقر بها .

ودعا شارل الخامس امير البحر اندريا دوريا الى استئناف

مطاردة طرغود وجاء اندريا دوريا في مارس سنة ١٥٥١
وكبس اسطول طرغود في قنال القنطرة (جربة) ولم يكن
طرغود مستعدا للحرب ، فجمع رجاله واستعان بسكان
الجزيرة واطلق نيران مدافعه على اسطول العدو الغازي وبني
في الليل قلعه صغيرة في راس الجزيرة ونصب عليها المدافع
واخذ يصلى اسطول دوريا بقنابل مدافعه .

ووجد الاميرال دوريا نفسه في خطر داهم فبعث الى نائب
ملك نابولي يطلب منه ان يرسل اليه ما تبقى عنده من الاسطول
والجنود والعتاد ودعا نائب ملك صقلية ان يضم اسطوله اليه
واجاب جميعهم طلب الاميرال واسرعوا باساطيلهم ورجالهم
وقواهم ليساعدوا اسطول مليكهم شارل الخامس .

كان في معية نائب ملك صقلية ، ابو بكر ابن مولاي الحسن
ملك تونس اتى به نائب الملك ليستخدم نفوذه السياسي
على سكان جربة فيطيعوه ويسلموا له طرغود .

كان طرغود عظيما حقا فقد كان يتتبع حركات اسطول اندريا
دوريا وكان واقفا على جميع اسراره ، وكان ينتظر ان يقوم
دوريا بحملة قوية عليه في الجزيرة فلجأ اسد البحر الى حيلة
تظهر جليلا براعته ومقدرته الفائقة في الشئون الحربية

حيما وشجاعا قويا ، فلم ترد الى تاجوراء امدادات بالسفن والرجال كما كانت ترد ايام برباروسا وفي سنة ١٥٤٩ كاد مراد اغا ان يقع اسيرا في ايدي الفرسان ، وقصة ذلك ان مرادا جاء في كوكبة من الفرسان ليحضر حفلة ختان في بيت صديقه عبد القادر بن شوشانه في المنشية .

وسمع المسيحيون بمقدم مراد آغا الى المنشية فهجموا بخيلهم ورجلهم على قبيلة ابن شوشانة وانقض الفرسان على مراد فتعرض عبد القادر بن شوشانة ورجاله طريق الفرسان ومكنوا مرادا من الفرار على فرسه العربي ، اما ابن شوشانة وصديقه احمد جوهره فوقعوا اسرين عند المسيحيين .

وفكر الفرسان في اكتساب ابن شوشانة الى جانبهم لما له من نفوذ على سكان القرى فاطلقوا سراحه مع صديقه احمد بن جوهره بعد ان اقسما الايمان ان لا يرفعا السلاح ضدهم وان يتعاونوا معهم بالاستعانة مع شيخ المنصورة وعرب المنشية حلفاء المسيحيين القدامى للقضاء على دولة مراد آغا في تاجوراء الا ان عبد القادر بن شوشانة تعاقدا سرا ، بعد ان اطلق سراحه ، مع مراد آغا على مقاتلة الفرسان .

وبلغ هذا الخبر مسامع الوالى المسيحى فالقى القبض على

جيمًا وشجاعًا قويًا ، فلم ترد الى تاجوراء امدادات بالسفن والرجال كما كانت ترد ايام برباروسا وفي سنة ١٥٤٩ كاد مراد اغا ان يقع اسيرا في ايدي الفرسان ، وقصة ذلك ان مرادا جاء في كوكبة من الفرسان ليحضر حفلة ختان في بيت صديقه عبد القادر بن شوشانه في المنشية .

وسمع المسيحيون بمقدم مراد آغا الى المنشية فهجموا بخيلهم ورجلهم على قبيلة ابن شوشانة وانقض الفرسان على مراد فتعرض عبد القادر بن شوشانة ورجاله طريق الفرسان ومكنوا مرادا من الفرار على فرسه العربي ، اما ابن شوشانة وصديقه احمد جوهره فوقعوا اسرين عند المسيحيين .

وفكر الفرسان في اكتساب ابن شوشانة الى جانبهم لما له من نفوذ على سكان القرى فاطلقوا سراحه مع صديقه احمد بن جوهره بعد ان اقسما الايمان ان لا يرفعا السلاح ضدهم وان يتعاونوا معهم بالاستعانة مع شيخ المنصورة وعرب المنشية حلفاء المسيحيين القداسي للقضاء على دولة مراد آغا في تاجوراء الا ان عبد القادر بن شوشانة تعاقدا سرا ، بعد ان اطلق سراحه ، مع مراد آغا على مقاتلة الفرسان .

وبلغ هذا الخبر مسامع الوالى المسيحى فالقى القبض على

ابن شوشانة وصديقه احمد بن جوهره ومعهما تسعة من رؤساء
وعشائر الضواحي ، وارسلوا الى مالطة لحاكتهم هناك ، وحيث
لم تثبت عليهم التهم ابرئت ساحتهم ورجعوا الى طرابلس .
وصل الى طرابلس في ٢٣ مايو ١٥٥١ الوالى الجديد
فاليير (VALLERS) وهو يعرف ان اسامه معركة
فاصلة وان الاسطول التركى قادم الى مالطة وطرابلس لتحريرها
وطردهم منها ، فاصيب الوالى الجديد هو ايضا بحمى
تقوية حصون وابراج واسوار مدينة طرابلس كما اصيب بها
من كان قبله .

وطلب هذا الوالى من رئيس منظمة فرسان القديس يوحنا
ان يمدّه باسلحه وفرسان وجنود ، على ان المنظمة لم تكن في
ذلك الوقت قادرة على تلبية طلبات الوالى في طرابلس والقيام
بأعمال تحصينات جدية في مدينة طرابلس او تجنيد جيش مسلح
عديد .

هذا وقدوم الاسطول التركى معناه زوال حكم الفرسان
نهائيا من طرابلس على انه قد يكون في ذلك ايضا اخروجهم
من مالطة كما اخرجوا من قبل من رودس الجميلة .
ولم يكن بين المسيحيين في اوروبا رابطة سياسية عسكرية

تجمعهم امام هذا الخطر الاسلامى الداهم ، بل كان الخلاف مستحكما بين الملوك والامراء والحروب قائمة قاعدة بينهم ، وعبثا ما حاول رئيس منظمة فرسان القديس يوحنا لاقناع ملوك اوربا بضرورة الدفاع عن طرابلس ومالطة مبينا لهم جميعا ما ينال المسيحية فى عقر دارها اذا ما تغلب الاتراك واحتلوا طرابلس واستقروا على سواحل الشمال الافريقى وما ينال اوربا الجنوبية على الخصوص ، الا ان صيحات رئيس المنظمة كانت كصيحات البأس ، ونداءات الغريق المحتضر ، فلم ينجده احد بالسلاح والعتاد والرجال والمال .

والواقع ان المنظمة كانت معترفة ، منذ تسلمها طرابلس ، بعجزها عن الدفاع عن اسوار وقلاع هذه المدينة ، وقد اعتمدت المنظمة على وعود ملوك اوربا وامرائها ، وعلى اثر هذه الخيبة فى الحصول على امدادات من الخارج ، تقدمت المنظمة داعية الى التجنيد فى كل من صقلية وكالابريا باسم الدفاع عن دين المسيح وعلى الرغم من اعطاء الصبغة الدينية الى حركات التجنيد هذه فانه لم يتقدم الا عدد قليل من الرجال من كل من صقلية وكالابريا ولا يفوتنا ان نقول ان الجندى الكالابرى اشتهر بالجبن والدناءة ، ولم يكن رئيس المنظمة راضيا على حركات

التجنيد في كالايريا .

جاء الاسطول التركى المكون من مئة وخمسين سفينة عليها اثنا عشر الف جندى . من الانكشارية وخمسة آلاف من رجال الكوماندوس وارباب الصنائع وست مئة فارس وكان يقود هذا الاسطول الضخم القائد التركى الكبير سنان باشا ومعه طرغود باشا الذى كان قد ذهب من قبل الى استنبول ليستحث السلطان على ارسال مثل هذا الاسطول وغزو بلاد النصرارى به وطردهم من ديار المسلمين .

بعث القائد التركى سنان باشا الى نائب الملك فى صقلية دى فيقا يطلب منه ان يتخلى عن المهدية .

وتسلم سنان ردا جافا من دى فيقا فتقدم الى احتلال قاطانيا (صقلية) ثم تركها وذهب الى اوغوسستا بصقلية ايضا فاحتلها واهزم فيها النار .

وظهر الاسطول التركى امام جزيرة مالطة يوم ١٨ يولييه وقد عزم سنان باشا ، بايعاز من طرغود باشا ، على الاستيلاء على قلعة سانت انجلو . حيث يوجد اكبر عدد من الفرسان ، ولكن سنان لاحظ ان الاستيلاء على مالطة سيكلفه وقتا طويلا وقد ينقضى فصل

الصيف ولا يتم له الاستيلاء عليها ، فرفع الحصار عن مالطة واحتل قوزو ونهبها واسر منها سبعة اركبهم السفن واقلع الاسطول التركى من قوزو يوم ٣٠ آلاف بين رجال ونسماء لوليـو ١٥٥١ م متجهها نحو طرابلس .

وصل الى مالطة في اول اغوستو من السنة نفسها المسيو دارمونت (D'ARAMOUNT) سفير فرنسا لدى البلاط العثمانى ، في ثلاث سفن كبيرة ، ويصحبه سكرتيره الخاص المسيو نيكولا دى نيكولى الذى كتب مذكرات هامة جدا حول احتلال سنان باشا لطرابلس ، وهذه المذكرات مطبوعة في البندقية سنة ١٥٧٠ تحت اسم

(NAVIGATIONI ET VIAGGI)

وعند نزول السفير الفرنسى الى مالطة دعاه المعلم الاعظم اليه ورجاه ان يذهب الى طرابلس وان يتصل بسنان باشا وان يطلب منه ان لا يستولى على طرابلس لما بين ملك فرنسا والسلطان سليمان من صداقة ومعاهدات .

رما الاسطول العثمانى امام ميناء طرابلس على بعد ميلين

فقط ونزل سنان باشا الى تاجوراء في ضيافة مراد آغا ،
ثم ارسل سنان عريبا يحمل علما ايض ورسالة الى القرسان
في قصر طرابلس يطلب فيها منهم ان يسلموه المدينة
واعدا اياهم ان يحفظ لهم رقابهم واموالهم ، وامر سنان
باشا بانزال الجيوش والمدافع الى البر بكل سرعة واحتياط
وكانت عملية الهبوط الى البر عند راس الهنشير « ساحل سوق
الجمعة »

ويقول ابن غلبون في كتابه التذكار : « فمر اسطول
السلطان سليمان بالمدينة المذكورة (يعنى طرابلس) مددا لقلج
على باشا اذ كان محاصرا لحلق الواد وبه طرغود باشا وهو
قائده فخرج اليهم مراد وسعه اعيان يبعثه من اهل
تاجوراء في شينى وطلبوا منه الاعانة فابى عليهم وتعلل
بانه لم يؤذن له فيها فهونوا عليه امرها وصغروها بين
يديه فاجابهم الى ذلك على شرط ان يعطوه حجة على ان
لا يكون عليه درك من السلطان لخالفته امره وانهم المؤاخذون
بذلك فاعطوه بذلك حجة وحاصروها برا وبحرا فاخذوها
عنوة وقيل طلب اهلها الامان لانفسهم فاجابهم لذلك وخرجوا .
ورواية ابن غلبون فيها شيء من الشك ، اذ ان ضخامة

الاسطول وكثرة وحداته لا تجعلنا نؤمن بأنه جاء ليخلص قليح على في حلق الوادي والحقيقة ان الاسطول كان مجهزاً للاستيلاء على طرابلس والاماكن الاخرى في الشمال الافريقي التي سبق للمسيحيين ان وضعوا ارجلهم فيها ، وان نزول سنان باشا بتاجوراء لم يكن بطلب من مراد آغا ورجال بيعته وانما لطرد القوات المحتلة لقصر ومدينة طرابلس ورفع نفوذهم عن الشمال الافريقي وخوفاً من وقوع كارثة جديدة للمسلمين بعد كارثة الاندلس .

والشمال الافريقي كله يدين لسلطين آل عثمان في احتفاظه بقوميته ودينه ولولا نشاط السلطان سليمان في تخلص هذه السواحل من المسيحيين لطغى علينا السيل ولانكر السكان قوميتهم بفعل الاضطهادات والمجازر كما زال ظل العروبة والاسلام من اسبانيا وصقلية ولولا قوة ال عثمان في هذا الدور وتضلعهم بمسئولية الدفاع عن الدين الاسلامي في البحر والبربل والدعوة والفتح باسمه لدرست آثاره وعفت رسومه ولصار هذا الشمال داراً من ديار المسيحيين .

وعندما اقترب سنان باشا من المدينة وبدأ

زحفه عليها اشد فزع المسيحيين داخل الاسوار
وثاروا على السوالى المرشال فالير الذى لم يقبل
الامر الواقع فيسلم المدينة عندما وصلتته رسالة سنان باشا
بل جمع رجاله واعلمهم مكابرة وعنادا بانه قرر الدفاع حتى
الموت وانه قرر ان لا يسلم المدينة الا اذا تسلم امرا من المعلم
الاعظم بذلك . وكان السوالى المرشال دى فالير يعتقد ان
الاسطول العثمانى لا يطيق البقاء فى عرض البحر خصوصا
وان فصل العواصف والزوايع اخذ يقترب وظن ان سنانا
لا بد راحل ودافع الحصار اذا ما صمدوا فى وجهه ولم يستسلموا
نصب سنان باشا المدافع قرب سيدى الشعاب وزاوية الدهمانى
والظهرة وحفرت الخنادق وتقدمت الجيوش نحو الاسوار وكان مع
سنان باشا مراد آغا حاكم تاجوراء وطرغود باشا يساعدا
فى ادارة الاعمال الحربية . وتقدم مراد آغا بقواته المؤلفة
من العرب والانكشارية .

ولم يكن فى استطاعة الاسطول التركى ان يشترك
فى الغزو لان مدفعية برج المندريك كانت قوية شديدة بل اكتفى
سنان برفع بعض قطعات المدفعية من الاسطول لاستعما طاقى البر
وجاء الى طرابلس السفير الفرنسى دارامون ومعه سكرتير

دى نيكولا والحصار قائم على طرابلس . درست السفن
الفرنسية فى ميناء تاجوراء الصغير وطلب السفير مقابلة
الباشا .

فاستقبله سنان بحفاوة وقبل دارامون يد الباشا وكانت
عادة تقبيل اليد من بروتوكول السفراء الذين يبعثون
الى الدول الشرقية . طلب المسيو دارامون من سنان باشا
ان يترك الاستيلاء على طرابلس وان يرفع الحصار عن فرسان
القديس يوحنا مذكرا سنان باشا بما يربط بين الامبراطورية
العثمانية وبين فرنسا من معاهدات وصداقة ومؤكدا بان
مملكة الفرسان تتمتع برعاية كبيرة من ملوك فرنسا .
الا ان سنان باشا اجابه بانه مكلف رسميا من طرف
السلطان سليمان باحتلال طرابلس وانه جاء لهذا الغرض
وانه لا يجد مقرا من تنفيذ الامر العالى .

وطلب المسيو دارامون ، بعد ان فشل فى اقناع سنان باشا ،
بان ياذن له فى الارتحال والذهاب الى الاستانة للاتصال
بالسلطان سليمان ، فلم ياذن له سنان بالابتعاد خوفا من ان
يصادف السفير نجاحا لعرضه لدى السلطان .

واستلم المسيو دارامون امرا بالبقاء حيث هو وعدم الاتصال

بالفرسان في طرابلس الا بعد ان يتم له الاستيلاء عليها .
بدات الحملة على طرابلس فعلا من قبل الجيش التركى في
يوم ٩ ، ١٠ ، ١١ من شهر اغسطس ، حيث كانت المدافع تلقى
على المدينة والقصر والاسوار بقنابلها ، وتقدم رجال بطريات
المدفعية ونصبوا مدافعهم في نقطة لا تبعد عن القصر باكثر
من مئة وخمسين مترا .

عمت الفوضى بين الجنود وسرى الخوف بينهم
وحاولوا الهرب الى مالطة بالسفن والخوا على قوادهم في
عقد الصلح مع الاتراك حتى يحفظوا لهم ارواحهم على الاقل .
ورأى والى المسيحي ان خطر الوقوع في ايدى الاتراك آت لا بد
منه ، فارسل مندوبين عنه ليتفاوضوا مع سنان باشا على
الصلح وتسليم المدينة على شرط ان يحفظ لهم اوراحهم ويسمح
لهم بمغادرة طرابلس والذهاب الى مالطة بكل ما عندهم من سلاح
ودخيرة ، وظنوا ان سنانا فاعل ذلك وقد سمح لهم به من
قبل السلطان سليمان عند طردهم من جزيرة رودس .
ولكن هل سينسى سنان باشا المجازر التى اقامها فرسان القديس
يوحنا .

وتجهز الجنود الصقليون والكلابريون وثاروا وسبوا ولعنوا

الاقدار التى رمت بهم الى حرب مع الاتراك ، الاتراك الذين كثيرا ما سمعوا عنهم بانهم غيلان آكلة واساد ضارية ومخلوقات غريبة تلتهم اللحوم البشرية التهاما .

بكى هولاء الجنود ايامهم فى اودية صقلية ومرتفعات كالابريا بكوا ايامهم الجميلة وبين اطفالهم ونسائهم . وماذا امامهم الان سوى الموت الموت الذى زرعه بايديهم اذا لم يتفضل سنان العظيم فيهب لهم ارواحهم ويرجعهم الى بلدانهم سالمين .

وهذا ما كان من سنان فقد اجابهم بانه مستعد ان يهبهم لانفسهم اذا ما تعهدوا له بدفع جميع الخسائر الحربية التى تكبدها جيشه فى هذه الحملة .

فلم يرض فرسان القديس يوحنا بهذا الشرط . وكيف يقبلون وليس لديهم المال الكافى لتغطية مطالب الباشا وهم الذين كثيرا ما استنجدوا واستنجدوا الملوك المسيحيين فلم ينجدوهم وهم الذين قد عجزوا حتى عن دفع رواتب الجنود وتكاليف الحامية .

فلم يكن استطاعهم عن قبول شروط سنان عن ثقة فى نصر نهائى او عن عزم على الاستبسال حتى الموت وانما كان

الامتناع لمجرد عدم وجود هذا المال المطلوب .

وزاد خوف الجنود المحاصرين واشتدت ثورتهم بعد ان فشلت عمليات التفاوض مع الاتراك ولم تصل في هذه المدة من مألطة اية مساعدة او نجدة للفرسان ، وكيف يمكن ان تصل وعرض البحر قد ملأه الاتراك سفينا .

واستمر الزحف والضرب واستمر التقدم نحو القصر والاسوار وكانت القنابل تنفجر في كل مكان .

ودعا سنان باشا المارشال فالير والى المدينة للتفاوض معه داسا وابرام معاهدة الصلح ، وجاء المارشال الى سنان باشا في خيمته يرافقه احد مساعديه ، فعرض سنان على الوالى اما ان يتعهد له بالخسائر الحربية واما ان ياخذ جميع الفرسان اسرى يبيعهم الاسواق في مقابل الخسائر . وظهر الوالى غلظة وتحرشا في القول ولم يقبل عرض سنان باشا ، ولذلك امر القائد التركى بتكبييل الوالى ثم بعث برفيقه الى المدينة لينذر الفرسان بالافناء الاجاعى اذا ما توانوا في فتح الابواب وتسليم المدينة له وحاولوا المقاومة اكثر واعتصموا بالقللاع والاسوار التى غدت لا تحميهم بسبب الخراب الذى حل بها . كان في مدينة طرابلس اثناء الحصار مائتا عربى مسلم

متحالفين مع الفرسان ضد اخوانهم ، وعندما شعر هؤلاء بان لا قدرة بعد للفرسان في المقاومة خرجوا في الليل على الخيول التي كانت تحت ايديهم قاصدين اخوانهم في الدواخل او مولاي الحسن ملك تونس حليف فرسان القديس يوحنا .
وسمع الاتراك في ظلمة الليل دقات حوافر الخيول على الارض فقاموا مسرعين نحوهم واسروا منهم خمسين ، اما الباقون فاستطاعوا الفرار الى تونس .

وعلم سنان باشا من الاسرى ان الفرسان يموتون كل ساعة مرات وان لا حول ولا قوة لهم لرد الغزو او المقاومة اكثر وقد دب بينهم الياس .

ولذلك لم يلجأ سنان الى استعمال اللين والدبلوماسية وانما اراد ان ينتظر حتى يتم له النصر ، وبعث مناديا ينادي قرب الاسوار والابواب ان اخرجوا من القصر واتركوا سلاحكم وانتم احرار . وكان هذا النداء كان كل ما ينتظره جنود وفرسان صقلية وكالابريا فلم يستشيروا ولم يصبروا بل فتحوا الابواب ونزلوا الخنادق المحيطة بالاسوار بعد ان القوا اسلحتهم وكان عددهم ست مئة رجل تقريبا ودخل العرب والاتراك مدينة طرابلس وعلى راسهم سنان باشا وطرغود ومراد واحتفل

الجنود والقواد باحتلال طرابلس احتفالا رائعا يوم ١٦ اغسطس ١٥٥١ ، ونصبت السراقات والمدارج اسام خراب القصر ودعا سنان الى هذا الاحتفال المسيو دارمون وسكـرتيره وحضر ايضا المارشال فاليرى الوالى السابق واشعلت المصاييح ليلا على قطعات الاسطول ابتهاجا بالنصر .

ويقول المسيو نيكولى الذى زار القصر بعيد احتلال الاتراك له انه وجد القصر فى حالة جيدة وانه قد نصبت عليه سـتات وثلاثون قطعة من المدافع وكثير من الآلات الحربية الاخرى . وقال المسيو نيكولى ان المواد الغذائية متوفرة داخل القصر وذكر انه يوجد به آبار جيدة وحفريات وقد كال اللوم على فرسان القديس يوحنا الذين استسلموا دون ان يكون لهم فى ذلك اى مبرر .

وأبر سنان باشا بوعوده فسمح للفرسان بمغادرة طرابلس على سفن تترفف عليها الاعلام الفرنسية ، كان ذلك فى اليوم الثامن عشر من اغسطس ، وحيا سنان القافلة المقلعة الى مالطة بطلقات من المدفعية وتوارت وراء الافق فتـواردى معها شبح الخوف والظلم فى مدينة طرابلس .

ولم يترك الفرسان اثارا تخلد ذكرهم سوى ما ارتكبوه

من فضائع وما اقاموه من مجازر . واقاموا كنيستهم فى احدى
حجرات القصر وسموها باسم القديس ليوناردو (LEONARDO)
وقد حولها الاتراك من بعد الى مسجد ، ولا يزال هذا المسجد
باقيا فى القصر تحت مراقبة ادارة اوقاف طرابلس الغرب .
وبعد ان تم الاستيلاء وتوطدت اقدام الاتراك على هذا الساحل
اقلع سنان باشا من طرابلس بالسفن والجنود بعد ان قلـد
ولاية طرابلس لمراد آغا لمدة حياته ، وابقى تحت يديه حامية
تـركية صغيرة .

قال الحشائشى : كنت فى مدينة باريس سنة ١٩٠٠ بمناسبة
زيارة معرضها العام ورايت فى خزانة الكتب العمومية مصحف
قرآن بخط يد سنان باشا المذكور على اكل حال من الصحة
وحسن الخط ، وياله من مصحف ثمين ، وهذا دليل على كمال
هذا البطل العظيم فى خطة القلم والسيف انتهى .
ومن الغريب ان رؤساء منظمة فرسان القديس يوحنا احتفظوا
لانفسهم بـلقب « السيد الامير على الدومينيون الملكى الطرابلسى
الى القرن الثامن عشر --- ر .

ولاية مراد آغا

كان اهم حادث وقع اثناء ولاية مراد آغا هي حملة فرسان القديس يوحنا على زوارة وجهزت هذه الغارة لغرض السلب والنهب ، وقد اختيرت زوارة لانها غير محصنة وليس بها حامية من الجنود النظاميين من قبل الاتراك للدفاع عنها ، وزوارة هي آخر البلدان الطرابلسية الساحلية من الجهة الغربية تبعد عن طرابلس ١٢٠ كيلومتر تقريبا وهي نقطة متوسطة بين طرابلس وجزيرة جربة .

وجهر الفرسان لهذه الحملة ستة عشر سفينة كبيرة عليها الفا شخص تقريبا من جنود وفرسان ومدفعيين ورجال البحرية واقلع الاسطول تحت قيادة ليون استروزي (STROZZI) يوم ٦ اغوستو ١٥٥٢ وبعد يومين كان الاسطول المسيحي امام زوارة ولكن اضطر ان يبقى في عرض البحر لاشتداد عواصف البحر وكثرة هياجه وتلاطم امواجه ، واقترب من الساحل في الليلة الواقعة بين يومى ١٣ و١٤ من شهر اغسطس ، وكان

مع المسيحيين ثلاثة من الزواريين كانوا اسرى في مالطة
اتى بهم ليرشدوهم الطريق ، ونزل الغزاة الى سواحل زوارة
يتقدمهم جماعة من المالطيين الذين يعرفون اللغة العربية
معرفة جيدة الا ان نزولهم كان بعيدا عن المدينة بخمسة عشر
ميلا وكان عليهم ان يقطعوا هذه المسافة مشيا على الاقدام
للوصول الى زوارة قبل ان يظهر نور الصباح على الافق
ويستيقظ الناس من سباتهم .

نظم ليون استروزي جيشه واستعد للقتال وبدا الجنود
يزحفون وامامهم الزواريون الثلاثة وقد ربطت ايديهم
ورقابهم بالحبال ومعهم المالطيون وقد لبسوا اللباس
الطرابلسي ، وقبل وصول الجيش المالطي الى زوارة بميلين
تقريبا لاحظ الدليل وجود مخيم وانوار ونيران مشتعلة
في واد هناك . انه مخيم جنود ، فاسر بذلك الى القائد
ولكنه لم يعبا بكلام الدليل وظن ان المخيم انما هو مخيم
عرب نازلين هناك وخيل اليه ان الفرصة مواتية للانقضاض
عليهم وتاسيرهم وحملهم في السلاسل الى مالطة .

ولم ينتظر الجنود المسيحيون امر القائد بل انقضوا على
المدينة وعلى قبائل زوارة في سكون الليل وهدوئه ينهبون

ويسلبون ويقتلون ويأسرون النساء والاطفال والشيوخ بدون رحمة او شفقة وفي لحظات قليلة اسروا خمس مئة شخص وعلم القائد من الاسرى ان مراد آغا مرابط في واد قرب زوارة جاء اليها ليخضع اهلها الى الاعتراف به في ٣٦٠٠ جندي بين فرسان ومشاة وانه سوف يتابع رحلته الى جـربة .

وامر القائد بالتراجع وركوب السفن وامر بالنفخ في النفير لسمع الجيش ويسمع الذين شغلوا بالنهب والسلب ولكن سرعان ما داهمتهم خيول مراد آغا وجيوشه وانقضت عليهم من كل حذب وصوب ، وضاق على المالطيين طريق الفرار فتشتتوا هاربين نحو السواحل تاركين كل ما كانوا قد استولوا عليه من اموال ورقاب يرجون ان يسلموا بانفسهم الى السفن وان ينجوا من الموت الذي بات ينشره بينهم مراد آغا ورجاله والقي فرسان القديس يوحنا بانفسهم الى البحر ليصلوا الى السفن سالمين ومات كثير منهم غرقا قبل الوصول الى المراكب التي كانت قد اقتربت من زوارة ولا تبعد عن الساحل باكثر من نصف ميل .

وهكذا تمت هذه الغزوة المالطية على زوارة بخسائر فادحة واقبلع الاسطول من اسام زوارة بالبقية الباقية من الجيش

واطلق اشرعته للرياح خوفا من ان ينزل عليهم طرغود في البحر بعد ان افناهم مراد في البر ، وعندما بلغ الخبر الى المعلم الاعظم لمنظمة الفرسان قال متأوها : هذه اكبر فاجعة اصابته الفرسان بعد فاجعة رودس .

في هذه السنة نفسها كان طرغود باشا يجوب مياه البحر الابيض المتوسط يبعث الرعب في قلب سكان ايطاليا الجنوبية وجزائرها ، فقد غزا في سنة ١٥٥٢ ريجيو كالابريا ، ونهبها وجمع منها غنائم كثيرة واسرى عديدين واستولى على سبع سفن كبيرة من سفن اندريا دوريا اميرال الامبراطور المقدس ، وبعد ان حمل هذه الغنائم الى طرابلس سافر في اغوستو ١٥٥٢ الى القسطنطينية ليقدم الى السلطان سليمان تقريره عن اعماله البحرية وكان طرغود يسعى في الحصول على ولاية طرابلس لنفسه وقد استاء كثيرا عندما اسند سنان باشا ولاية طرابلس الى مراد آغا واغتتم طرغود فرصة وجوده عند السلطان سليمان ، فحاول اقناعه بان مرادا لم يعد قادرا على فرض السلطة على السكان العرب المتמרدين وان شيخوخته لا تساعد على تركيز السلطة العثمانية في تلك الديار وعلى مطارد القراصنة المسيحيين في البحر ، واستطاع

طرغود ان يقنع السلطان فعلا باسناد الولاية اليه وجاء طرغود في اواخر مارس ١٥٥٣ م من القسطنطينية ويده فرمان لتولية على طرابلس واستقبله مراد آغا والجنود والعرب استقبلا رائعا ، وفرح الجنود بتولية طرغود امرهم وهم يعلموا انه القائد الذى لا يتراجع ولا يهزم وفرح العرب سكان المدينة بمقدم طرغود لانهم بذلك امنوا شر الاعداء وبهذا انتقل مراد آغا الى تاجوراء ليقضى بقية ايامه

عزلة في البلد التى آوته ونصرته ، وحل معه الاسرى المسيحيين الذين ملكهم وامواله الواسعة التى غنمها واراد ان يخلد اسر فبنى جامعهم العظيم في تاجوراء واستخدم هؤلاء الاسرى في بنائه ووعدهم باطلاق سراحهم عندما يتم بناء المسجد وقد جلب الاعمدة له من لبدة العظمى المدينة الاثر الواقعة قرب الخمس ، وابر مراد بوعده للمسيحيين فقد اطل سراح الاسرى بعد ان تم بناء الجامع .

وجامع مراد آغا مستطيل الشكل طوله من الخارج ٤٢،٦٠ و عرضه ٣٥،٢٠ اما من الداخل فطوله ٣٨،٦٠ متر وعرضه ٢٤،٨٠ وتستند قبابه على اقواس رفيعة وحادة في شكل حدوة الفر مركبة على ٤٨ عمودا

وبجانب هذا الجامع يوجد مبنى صغير مساحة ١٥ × ٤٠ م ، متر عليه قبة واحدة وفيه دفن مراد آغا بعد ان ادى للمسلمين عامة ولطرابلس خاصة خدمات لا ينساها له التاريخ مدى الازمان رحمه الله رحمة واسعة . ويرجع الفضل لمراد آغا في تعمير مدينة طرابلس بالسكان ، فقد كانت عند دخول سنان باشا ومراد وطرغود خالية تماما من السكان العرب فجلب اليها الفارين منها عند دخول الاسبان وكثيرا من سكان تاجوراء والقرى القريبة من المدينة ، ولهذا يدعى اكثر سكان مدينة طرابلس اليوم ان اصلهم من تاجوراء وقد يكون في هذا كثير من الصحة . واهتم مراد آغا ببناء البيوت والمساكن للسكان وشجع الناس على تعمير المدينة ، وزراعة الحقول واستثمار الارض ، وبهذا بدأت طرابلس تسترجع ماضيها وثروتها وخيراتها بعد ان قضى عليها الاسبان وفرسان القديس يوحنا مدة ١٤ سنة تقريبا .

اعتمدت في كتابة هذه الرسالة على المصادر الآتية :

(١) - التيجاني

(٢) - ابن غلبون التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها

من الاخبار (القاهرة ١٣٤٩ هـ)

(٣) - الحشاشي (محمد بن عثمان) جلاء الكرب عن طرابلس الغرب

(٤) - عثمان الكعاك الموجز العام لتاريخ الجزائر (سنة ١٣٤٤)

E. ROSSI — Il dominio degli Spagnoli e dei Cavalieri di Malta in Tripoli.

S. AURIGEMMA — I Cavalieri Gerosolimitani a Tripoli — A. Airoldi, Ed. (A. XV.

S. AURIGEMMA — Il Castello di Tripoli di Barberia — Riv. Col., 1923, pp. 191-220.

S. AURIGEMMA — Le fortificazioni di Tripoli — in « Not. Arch. Min. Col. », II, p. 257.

S. AURIGEMMA — Murad Agha — in « Riv. Col. It. », 1930, pp. 853-73.

M. RAVA — I Cavalieri di Malta a Tripoli — in « L'Oltremare » giugno 1929, pp. 253-257.

R. BARTOCCINI — La Moschea di Murad Agha in Tagiura — in « Architettura ed Arti Dec. », III, 1924.

P. C. BERGNA — Tripoli dal 1510 al 1850, Tripoli, 1925, pp. 1-48.

MANFRONI — Tripoli nella storia Marinara d'Italia, Padova, 1912.

LEONÉ AFRICANO — Viaggi.

L. CHARLES FERAUD — Les Annales Tripolitaines, Tunis, 1927.

الفهرس

صحيفة

٣	الاسبان فى طرابلس
٢٥	بدء الغزو الاسبانى فى الشمال الافريقى
٤٦	الاسبان بين جربه وطرابلس
٦٢	حالة طرابلس فى العهد الاسبانى
٧٥	فرسان القديس يوحنا فى طرابلس
٩١	فرسان القديس يوحنا بين العرب والأتراك
١٠٧	الغزو التركى
١٣٧	ولاية مراد آغا (ملاحق)

يتبع : -

العهد العثماني الاول في

طرابلس

مطبعة ماجی - طرابلس - ٤ - ١٩٥٢ م
